

الحرب الشيشانية بين التأليف والتزييف

محمد يوسف عدس
مستشار سابق بهيئة اليونسكو

المختار الإسلامي

اهداءات 2003

المستشار/ محمد يوسف عدس




بسم الله الرحمن الرحيم

المختار الإسلامى
أسسها حسين عاشور عام ١٩٧٣
القاهرة : ١٥ شارع شهاب - المهندسين
تليفون وفاكس ٣٤٩٠٤١١ - ص ب ١٧٠٧ - القاهرة - رمز بريدى ١١٥١١

محمد يوسف عدس
مستشار سابق بهيئة اليونسكو

الحرب الشيشانية بين التأليف و التزييف





الحرب الشيشانية بين التأليف والتزييف

يكاد المراقبون السياسيون الغربيون يجمعون على أن الحرب الشيشانية حرب مفتعلة، من تأليف وإخراج الرئيس الروسي يلتسن وبطانته في الكرملين، ويرون أن توقيتها وثيق الصلة بموضوعين: أولهما يتعلق بالفضائح المالية التي تفجرت أخبارها في الإعلام الغربي قبل الحرب مباشرة، حول أموال المساعدات والقروض التي تقدمها الدول الغربية لروسيا، والتي تتم سرقتها وتحويلها إلى حسابات خاصة في البنوك الدولية.

وقد وجهت الاتهامات إلى شخصيات سياسية معروفة في الكرملين من بطانة الرئيس يلتسن وأفراد أسرته.

ويرى هؤلاء المراقبون أن الحرب ومقدماتها الدرامية التي سبقتها، متمثلة في حوادث تفجير العمارات السكنية بموسكو وغيرها من المدن الروسية وسقوط ثلاثمائة قتيل مدني من جراء ذلك، يرون أن هذه الحرب هي التي حولت انتباه الرأي العام الروسي والعالمي عن الفضائح المالية التي أحاطت بيلتسن وأسرته وشبهوا ذلك بموقف الرئيس الأمريكي بل كلنتون عندما استعرت الحملات الدعائية ضده وأحاطت به الفضائح أثناء شهادة "مونيكا لوينسكي" في الكونجرس العام الماضي،

هنالك انطلقت حملة القصف الصاروخي المركز على العراق التي بدأت قبل رمضان الماضي واستمرت أثناء الشهر الكريم، كما اشتملت الحملة على عمليات قصف أخرى دمرت مصنع الدواء السوداني، واستهدفت مقر أسامة بن لادن في أفغانستان. ومن الواضح أن حملة كل من كلينتون ويلتسن قد حققت بالفعل أهدافها بإخماد أنباء الفضائح الأخلاقية والمالية التي ثارت ضدهما.

الانتخابات:

أما الموضوع الثاني الذي يرى المراقبون السياسيون صلته الوثيقة بالحرب الشيشانية وتوقيتها فهو موضوع الانتخابات البرلمانية التي كان من المقرر إجراؤها يوم الأحد ١٩ ديسمبر ١٩٩٩م، وانتخابات الرئاسة التي تلتها في صيف العام القادم، أي بعد ذلك بستة أشهر.

كانت الصورة الشائعة عن الرئيس يلتسن وبطانته في الكريملين أنهم يمثلون حكومة ضعيفة وفاسدة، تسببت في هزيمة مهينة للجيش الروسي في حرب الشيشان الأولى، وهي عاجزة عن التصدي لمشكلات الغلاء الفاحش وعصابات الجريمة المنظمة واستغلال الرأسمالية الجديدة، علاوة على أن رئيس الدولة رجل معتل الصحة مدمن للخمر وحوله بطانة فاسدة.

وكانت المعارضة الروسية ذات الأغلبية البرلمانية يرتفع صوتها عالياً في البرلمان وخاصة حول قضايا خطيرة أهمها:

١- خصخصة القطاع العام وآثارها الاجتماعية المروّعة.

٢- إفلاس الصناعات الروسية.

٣- انهيار الخدمات الصحية والنظام التعليمي.

٤- فساد الأجهزة الحكومية وتفشّي الرشوة والتهريب، والتهرُّب من دفع الضرائب.

مع بداية الحرب في الشيشان تجمدت كل هذه القضايا والاتهامات في ثلاجة، ومع الانتصارات التي يحققها الجيش الروسي،- بدون خسائر- على الإرهاب الإسلامي في الشيشان، أصبحت الحرب والانتصارات هي كل شيء في وسائل الإعلام، ولا صوت يعلو فوق صوت المعركة.

في جو القصف المتواصل واستيلاء الجيش على الأرض الشيشانية والزحف المستمر نحو جروزني لتطويقها، قام الكريملين بحملة انتخابية بارعة لصالح أنصار يلتسن ومؤيدي حكومة بوتين (الرجل القوي).

كانت التركيبة البرلمانية طوال حكم يلتسن تسيطر عليها كتلة المعارضة الشيوعية، وكان يلتسن وأنصاره الذين يطلق عليهم اسم "الإصلاحيين" المنسوبين إلى اقتصاد السوق والديمقراطية الغربية،

يواجهون معارضة شرسة في مجلس الدوما (البرلمان)، وقفت عقبة كأداء أمام قرارات يلتسن ومشروعاته، وأصبح الصدام بين يلتسن والدوما مسلسلاً متصل الحلقات بلغ ذروته من العنف سنة ١٩٩٣م عندما هاجم يلتسن مبنى البرلمان بالدبابات والقصف المدفعي، واقتحمت قواته المجلس لتقضي على اعتصام النواب وتلقي القبض على زعماء المعارضة.

ولكن جاءت نتيجة الانتخابات الأخيرة لصالح أنصار يلتسن وبوتين، ولم يحصلوا على أغلبية المقاعد كما قد يتبادر إلى الذهن، وإنما حصلت كتلتهم على عدد من المقاعد يوازي عدد المقاعد التي فاز بها نواب الحزب الشيوعي، وبذلك فقد الشيوعيون السيطرة المطلقة على الدوما، ولا تزال لعبة التشكيلات والتحالفات في المجلس قائمة وربما ستظل كذلك لفترة من الوقت.

السبب في ذلك هو وجود ١٠٥ مقاعد فاز بها نواب مستقلون لا ينتمون إلى كتلة بعينها، وفي بلاد العجائب بورصة للنواب يُشترى فيها النائب بمليون دولار أمريكي، وراء هذه البورصة وممّولها صديق يلتسن وصاحب النفوذ البارز في الكريملين الملياردير اليهودي الشاب "أناتولي تشوبايس" الذي أعلن مؤخراً في برنامج تلفازي أنه سوف يدعّم بوتين في انتخابات الرئاسة القادمة عند انتهاء مدة يلتسن، وعلى الأرجح أن "تشوبايس" هذا هو الذي رشح بوتين لرئاسة الوزراء في الحكومة الحالية.

كان "فلاديمير بوتين" عقيداً مغموراً في جهاز المخابرات الذي كان يطلق عليه في الماضي اسم أل "كي. جي. بي"، وهو رجل غامض تحيط به أسرار يحرص ألا يفضّها، ليس له برنامج سياسي أو اقتصادي معروف، وكل ما صرح به لا يزيد عن بعض الشعارات الرنّانة:

أنه سيدعم الإصلاح الاقتصادي في أجواء خالية من الفساد والجريمة المنظمة، وأنه وراء احترام القانون وضد التهرب من الضرائب. .

لقد سبقه رئيس وزراء ذو تاريخ سياسي معروف هو "يفجني بريماكوف" الذي كان له برنامج واضح محدد، وحاول بالفعل- خلال فترته القصيرة في الحكم ترشيد المساعدات الاقتصادية، ووعد بالقضاء على الفساد وبدأ بالفعل في تنفيذ وعوده بإلقاء القبض على أحد رءوس الفساد المسمى "بريزوفسكي"، فلما ذهب رجال الأمن إلى مسكنه فوجئوا بأن زملاء لهم في جهاز الأمن هم الذين يقومون بحراسته، نظير أجر إضافي سخيّ لتحسين أحوالهم المعيشية.

كان بريماكوف فيما يبدو- يخطو في طريق الإصلاح الحقيقي، ولكن لم يعجب هذا التوجه يلتسن وبطانته في الكريملين خصوصاً أنه كان يدعم اتفاقية ألكسندر ليبيد للسلام في الشيشان ويرفض الحل العسكري، من أجل ذلك أقاله يلتسن من منصبه كما أقال ليبيد من قبل.

الحزب الذي دخل به يلتسن انتخابات الدوما يسمى حزب الوحدة، هذا الحزب لم يكن له وجود قبل الانتخابات بثلاثة أشهر، وإنما ظهر فجأة من لا شيء، ليس له أجندة عمل، ولا خطط أو برامج سياسية منشورة، وكان يتجنب الحوار مع الأحزاب الأخرى، ويمكن القول إن هذا الحزب الشبح لم يكن له وجود حقيقي خارج شاشات التلفاز، فالشبكتان الفدراليتان للتلفاز في قبضة مجموعة من الناس هم الذين ألفّوا هذا الحزب أو اخترعوه، وجعلوا له الدب رمزاً، ووضع يلتسن على رأسه وزير الطوارئ، حظي هذا الحزب مع حزب اليمين المتطرف بزعامة "فلاديمير جرينوفسكي" بضعف الوقت المخصص لجميع الأحزاب الأخرى في التلفاز للدعاية الانتخابية، ذلك لأن حزب اليمين المتطرف يشكل مع حزب الوحدة كتلة أنصار يلتسن وبوتين. وقد أنفقت أموال طائلة على هذه الكتلة، التي قامت بحملة دعائية قذرة ضد منافسيها، تجاوزت فيها كل المعايير الأخلاقية والإنسانية.

وجرت الصحافة على نفس المنوال في دعايتها الانتخابية لدرجة أن بعض رجال الحكومة أنفسهم عبروا عن صدمتهم بهذا المستوى اللاأخلاقي في الدعاية الانتخابية، حيث صرح وكيل وزارة الإعلام بأنه: "لم يتوقع أحد مثل هذه الحملة الشرسة العنيفة ولا استخدام هذه الحيل القذرة التي لا يمكن تصورها".

فلما ظهرت نتائج الانتخابات شرع أناتولي تشـوبايس "يبـث دعايـة موجهة إلى استهواء الدول الغربية حيث قال: "إنها أول مرة منذ ١٩٨٩م يصبح لروسيا برلمـان لا يسـيطر عليـه الشـيوعيون، وسـتكون هـذه الانتخابات خطوة ناجحة في طريق التحوّل المنشود".

لعل من أهم آثار هذه الحملات الدعائية أنها أخرست كل المعارضين للحرب الشيشـانية فلـم يجـرؤ أحـد علـى انتقادهـا خوفـاً مـن انصـراف النـاخبين المعبئـين عـن طريقـه، وخشـية أن يتـهم بالخيانـة ومسـاندة الإرهاب الإسلامي.

كان صوت بريماكوف خافتاً فقد الـتزم الهـدوء بخصـوص الحـرب، فيما عدا أنه ألمح إلى أنه على الحكومة ألا تجعل قصف جروزني يكسب روسيا عداوة الشيشانيين المدنيين، ويفقدها أصدقاءها الغربيين.

أما زعيم الحزب الشيوعي "جينادي زيجانوف" فقد تعمد أن تكـون تصريحاته غامضة: انتقد يلتسن للقرار الإجرامـي بـإعلان الحـرب علـى الشيشان وقال إنه لا ينبغي أن نسمح بمعاناة النساء والأطفـال، ولكـن في تصريح آخر قال: "يجب إيقاف الإرهاب، كمـا يجـب علينـا أن نسـاند قواتنا المسلحة".

يعلق "جوناثان ستيل" في صحيفة الجارديان البريطانية (٢٣ ديسمبر ١٩٩٩م) على نتائج الانتخابـات البرلمانيـة الـتي اعتبرهـا أنصـار يلتسـن

انتصاراً لكتلتهم فيقول: "كانت انتخابات الأحد الماضي صدمة لكل من كان عنده أمل في انتهاء القصف المروع للشيشانيين، لأنها قضت على هذا الأمل تماماً.. وأصبح قدر الشيشانيين المدنيين الذي يعيشون في حالة بائسة من الجوع والخوف تحت درجة الصفر في عربات قطارات قديمة متهرئة، أو في خيام اللاجئين بأنجوشيا، أو في أقبية تحت الأرض في المدينة المنكوبة جروزني، أصبح قدرهم أن يتحملوا هذا كله مع القصف الروسي المستمر لستة أشهر أخرى قادمة حتى يحين موعد انتخابات الرئاسة".

ذلك لأنه ليس من المتوقع أن يتخلى مستشاروا الكريملين عن سياسة القصف المتواصل في الشيشان بعد أن ثبت نجاحها في التجربة الأولى للانتخابات.

أسباب عميقة الجذور:

رأينا أن الانتخابات الروسية بمرحلتيها العاجلة والآجلة وثيقة الصلة بالحرب الشيشانية الجارية، ولكنها لا تفسر كل شيء عن هذه الحرب، ربما تفسّر توقيتها وشراستها، ولكن تظل هذه الحرب غير مفهومة حتى نستكشف أبعادها الأخرى. لقد نشأت مشكلات انفصال لجمهوريات أخرى في روسيا الاتحادية ولكنها عولجت بالدبلوماسية،

فلماذا تحاول روسيا أن تعالج مشكلاتها مع جمهورية الشيشان بالذات بالحرب والإبادة بدلاً من الدبلوماسية والمفاوضات؟

هناك أسباب عميقة الجذور في العلاقات التاريخية بين روسيا وبين شعوب القوقاز المسلمة بصفة عامة والشيشانيين على وجه الخصوص، وأقرب الأحداث التاريخية إلى الذاكرة حرب الشيشان الأولى التي استمرت عامين من سنة ١٩٩٤ إلى سنة ١٩٩٦م، وانتهت بهزيمة منكرة للجيش الروسي.

والحقيقة أن الحرب الحالية والحرب السابقة ليستا سوى حالتين حادثتين في حرب واحدة متصلة بدأت سنة ١٩٩١م عندما أعلن الرئيس "جوهر دوداييف" استقلال الشيشان بعد تفكك الاتحاد السوفيتي، وهي حرب لم تنته بعد وما أظن أنها ستنتهي قريباً حتى ولو سقطت جروزني في يد القوات الروسية.

بل إنني أزعم أن هذه الحرب بكل حلقاتها الهادئة والملتهبة ليست بدورها إلا مرحلة معاصرة لصراع تاريخي طويل بين روسيا وبين الشيشانيين الذين رفضوا الاستعمار الروسي الإمبريالي، وظلوا يقاومونه جيلاً بعد جيل، على مدى قرنين من الزمن على الأقل.

كان موقف الحكومات الروسية- في جوهره- واحداً على مر العصور وتغيّر الأنظمة: التشويه والإبادة، وكان موقف الشيشانيين دائماً واحداً هو: هو الرفض والمقاومة حتى الموت في سبيل الحرية.

الافتراء داء قديم:

تقوم الحرب الشيشانية الحالية على أساس افتراءات ثلاث:

١- الحكومة الشيشانية حكومة إرهابية.

٢- الإرهاب لابد من معاقبته.

٣- لذلك فالغارات والقنابل ضرورية للقضاء على الإرهاب.

ولكن الذي يتأمل القضية الأولى والثانية- كمقدمات منطقية- لا يمكن أن يسلم بهما دون بحث في صحة انطباقهما على الواقع، فباب الأخذ والرد فيهما مفتوح على مصراعيه، وحتى لو سلمنا جدلاً بصحتهما فإنهما لا يؤديان بالضرورة إلى النتيجة الواردة في القضية الثالثة، وذلك لسببين جوهريين: أولهما أنه يمكن اللجوء إلى حلول أخرى غير الحرب، وقد ثبت أن الرئيس الشيشاني أصلان مشهدوف كان يسعى جاهداً طوال العام الماضي لإقناع الكريملين باستئناف المفاوضات التي قطعتها الحكومة الروسية نفسها، وتنفيذ بنود اتفاقية السلام التي وقعها مع ممثل الكريملين الجنرال "ألكسندر ليبيد" منذ ثلاثة أعوام، ولكن

الحكومة الروسية لم تنفذ حرفاً واحداً مما التزمت به في هـذه الاتفاقيـة، ولم تعر أي اهتمام لجهود أصلان مشـهدوف لاسـتئناف المفاوضـات، ولا يمكن وصف حكومة يسعى رئيسها للمفاوضات ويلتزم ببنود اتفاقية سلام وقع عليها بأنها حكومة إرهابية.

أما السبب الآخر فهو أن الذي نشاهده في الشيشان الآن ليس حملـة مقصورة على هدف محدد هو القضاء على مجموعة مـن الإرهـابيين وإنمـا حرب شاملة قوامها مائة ألف جندي روسي مدعمـة بالدبابـات والمدافـع الثقيلة والصواريخ والطائرات الحربية، وقد مضى الآن على هذه الحـرب ثلاثة أشهر أو تزيد ولم تدخل القوات الروسية في معارك مـع الإرهـابيين (كما تسميهم) وإنما هي تشن حرباً سافرة على المدنيين، ويرى العالم مـا أسفرت عنه من كوارث في صفوف هؤلاء المساكين الأبرياء. علمـاً بـأن مـا رأيناه ليس إلا جزءاً من الحقيقة الرهيبة فالقوات الروسية تفرض تعتيمـاً إعلامياً على هذه الحـرب، وتمنـع الصحفيـين والمصوريـن مـن الاقـتراب منها، حتى الصحفيين الروس غير مسموح لهم بالتحدث إلى الشيشانيين اللاجئين أو الفارين من جروزني، ولذلك فنحن لا نعلم سـوى مـا يذيعـه الجيش من أخبار، ولا نرى إلا الصور التي يعدّها للنشـر بمعرفتـه، وقـد توقف إحصاء عدد اللاجئين عند الرقم مائتين وعشرين ألفـا رغـم الـنزوح المستمر الذي لم ينقطع لهؤلاء اللاجئين.

العجيب أن حكومات العالم غرباً وشرقاً صدّقت الافتراءات الروسية أو تظاهرت بتصديقها حتى تفلت من مساءلة شعوبها: لماذا لم تقف ضد هذه الحرب الوحشية على الشعب الشيشاني؟ نسيت هذه الحكومات أو تناست أن الحكومة الروسية التي ألّفت هذه الافتراءات وزيّفت الحقائق هي وريثة أكبر مدرسة لتزييف الحقائق في التاريخ الحديث كله، إنها مدرسة أل (كي. جي. بي)، وأن هذه المدرسة هي التي تخرّج منها أكثر السياسيين الذين يحكمون روسيا الآن وعلى رأسهم فلاديمير بوتين رئيس الوزراء.

أسباب مباشرة:

الحملة العسكرية الدائرة الآن في الشيشان والتي بدأت في شهر سبتمبر الماضي ١٩٩٩ كان الجيش الروسي يخطط لها منذ ثلاثة سنوات، أي بعد انتهاء الحملة السابقة بهزيمة مهينة له على يد الشيشانيين في جروزني، ولكن كان لابد من إيجاد أسباب مباشرة لهذه الحملة، وقد وجدتها الحكومة الروسية متمثلة في حادثتين:

الحادثة الأولى تتلخص في التحاق مجموعة من المقاتلين الشيشانيين بقيادة شامل باسييف بقريتين داغستانيتين كانتا متمردتين على الحكومة الداغستانية منذ فترة، وأعلنوا قيام دولة إسلامية فيهما، ويبدو أن هذا

العمل كان فرقعة إعلامية ولفت نظر أكثر من كونه عملاً جاداً مخططاً له ويراد له الاستمرار لتحقيق أهدافه، وربما رأى أصحابه- وهم محسوبون من قيادات المعارضة الشيشانية- أنهم بهذه الحركة قد ينجحون في إقناع الروس بالعودة إلى المفاوضات وتنفيذ اتفاقية السلام التي أهملوها، وبذلك يكسبون نقطة ضد سياسة أصلان مسعدوف التي تتسم بالعقلانية والنفس الطويل، والدليل على صحة هذا الرأي أن التمرد انتهى فور تحرك الجيش الروسي وقصفه للقريتين، مع ضجة إعلامية في الصحف والإعلام الروسي والعالمي على السواء، وهكذا انسحب المقاتلون الشيشانيون من داغستان.

طبعاً لم يثبت أي علاقة للحكومة الشيشانية بهذه الواقعة بل إن الرئيس مسعدوف استنكر الحادثة وتبرأ من القائمين بها، ومع ذلك أصرت السلطات الروسية على اتهام الرجل بأنه وراء هذه العملية التي وصفها الإعلام الروسي بالعملية الإرهابية، وأنه يتستر على الإرهابيين والأصوليين الإسلاميين، وظهر في الإعلام تهمة جديدة هي "الوهابية" الوافدة من الشرق الأوسط..!

أما الحادثة الثانية فتتمثل في تفجيرات مجهولة لبعض العمارات السكنية في موسكو ومدن روسية أخرى راح ضحيتها ثلاثمائة قتيل من المدنيين، هذه الحادثة أثارت ضجة إعلامية كبرى ضد الإرهاب

الشيشاني والأصولية الإسلامية، مما أهاج الرأي العام في روسيا وخارجها لبشاعتها واستهدافها المدنيين.

ولكن السلطات الروسية لم تقدم دليلاً واحداً على صحة اتهاماتها ولم تأت بمتهم ولا شاهد واحد علماً بأن لديها في موسكو مليون قوقازي منهم ثلاثمائة ألف شيشاني على الأقل، وكل ما حدث أن عمدة موسكو "يوري لوجكوف" استغلها فرصة فانقض على القوقازيين المسلمين بشرطة شديدة الوطأة اقتحمت مساكنهم وأخضعتهم لإجراءات قمعية واضطهاد وإهانة في الشوارع، وسحبت منهم تراخيص العمل لتبددهم وتشتت شملهم.

شامل باسييف الذي كان يفخر بعملياته الفدائية أو الإرهابية (من وجهة نظر السلطات الروسية) نفى نفياً قاطعاً أي صلة له بهذه التفجيرات، فتفجير العمارات ليس أسلوبا معروفاً ولا مشروعاً في أوساط المقاتلين الشيشانيين، وليس جزءاً من ثقافتهم ولا تقاليدهم التاريخية في المقاومة، ومن أراد أن يفهم هذا عليه أن يقرأ في تاريخ حركة المقاومة الشيشانية كثيراً.

يعرف هذا المثقفون المنصفون من الروس كما يفهمه الجنرال ألكسندر ليبيد الذي وصف هذه الحادثة بأنها مفتعلة ولا يستبعد أن تكون من تدبير الكريملين وعملائه في المخابرات[1]. ويضيف ليبيد (في حديث له نشر

---

[1] وقد ثبت بالفعل تورط المخابرات الروسية في تدبير هذه الحوادث من خلال تحقيق صحفي أجرته محطة تلفاز INT البريطانية.

في صحيفتي واشنطون بوست والتيمز اللندنية في آن واحد) معلقاً على سؤال بشأن الحملة الروسية السابقة على الشيشان يقول: "كثيراً ما سئلت عما إذا كنت أعرف من المسئول عن هذه الحرب.. نعم أعرفهم بأسمائهم، وأدرك أيضاً أن هذه الحرب لها جذور اقتصادية متسترة في شكل سياسي، وليس الوقت مناسباً للكشف عن أسماء هؤلاء الناس المسئولين عن الحرب، لأن المناخ لا يزال ينذر باستئناف الحرب مرة أخرى بقوة جديدة وعلى نطاق أكبر.. أولاً لابد من وقف القتل والعودة إلى الحياة السلمية، عندها سوف يضع القضاء العادل كل إنسان أمام مسئوليته ويحدد درجة إجرامه".

قال هذا الكلام ألكسندر ليبيد منذ عامين وقد تحقق ما تنبأ به فهل لهذا من معنى!؟ وهل يستطيع أحد أن يزايد على كلام هذا الرجل الذي اجتهد عاماً كاملاً للتوصل إلى اتفاقية سلام مع الشيشانيين التزمت حكومة الشيشان بتنفيذ بنودها ولم تعبأ بها الحكومة الروسية، والكلام مرة أخرى للجنرال ليبيد الذي قال: "لم يكترث أحد في السلطة بتفعيل الاتفاقية باتخاذ خطوة سياسية أو اقتصادية لإعادة الوضع في الشيشان إلى مجراه الطبيعي".

كانت الاتفاقية في نظر الجنرالات الروس والحكومة الروسية مجرد هدنة تُلتقط فيها الأنفاس، وتسمح بوقت كاف للإعداد لحملة عسكرية

جديدة على الشيشان، تتم فيها الإبادة الكاملة للشعب الشيشاني، وينتقم بها الجنرالات لهزيمتهم في الجولة السابقة من الحرب، ويستعيد بها يلتسن كرامته ويدفن فيها فضائحه، ويرفع بها بوتين اسهمه في الانتخابات الرئاسية القادمة.

وعندما يأتي بوتين ليروج عن الشيشانيين تهمة الأصولية والإرهاب الإسلامي ويصف المقاومة بأنها إجرام شيشاني فإنه لم يأت بشيء جديد، فقد كانت هذه المزاعم وأمثالها تتردد على لسان السلطات الروسية الإمبريالية على مر العصور وتتخذها مبرراً للانقضاض على الشعب الشيشاني، كما أنه ليس بجديد أيضاً أن يرفع الشعب الشيشاني السلاح في وجه الاستعمار الروسي في مقاومة متصلة دفاعاً عن أرضه وحريته، ويبدو أن هذا هو قدر الشيشانيين الذي لا مفر منه.

إدراك الذات والآخر:

كانت الصورة التقليدية للشيشانيين وشعوب القوقاز جميعاً في نظر السلطات القيصرية أنهم حيوانات متوحشة، وشعوب همجية لا يؤمن جانبها، بينما تنظر إلى نفسها باعتبارها الدولة المتحضرة ذات المكانة العالمية،حامية حمى المسيحية الأرثوذكسية، نظرة حادة قطبية أحادية

الجانب، يقف فيها الآخر غير المسيحي قبليًّا فظًّا خائناً همجياً، في حين تمثل روسيا القيصرية الحضارة والأخلاق والنظام.

في هذا المناخ الاستعلائي للذات المتضخمة وللآخر الوضيع تبلورت رسالة روسيا الإلهية نحو الآخرين: التنصير والترويس، ولأن الآخرين حيوانات أو على أحسن الفروض أطفال بلا عقول تدرك مصلحتها، فقد تحددت الوسيلة لتحقيق الرسالة وهي القهر والقمع ثم التدريب.

هذه هي الصورة الثابتة التي دأبت السلطات القيصرية على بثّها في عقول الشعب الروسي وجنود الجيش الروسي خلال دعايتها، وذلك بهدف كسب تأييد الشعب لها في حروب القوقاز، فهل اقتنع الشعب الروسي بهذه الدعاية أم كانت له رؤية مختلفة عن شعوب القوقاز؟، ولماذا كانت السيطرة على القوقاز بهذه الأهمية لروسيا القيصرية؟.

الإجابة على هذين السؤالين تفرض نفسها بقوة، ليس فقط لفهم تاريخ الصراع الروسي الشيشاني، ولكن أيضاً لتفسير هذه الشراسة أو- على الأرجح- الوحشية التي تتسم بها الحروب الروسية ضد الشيشان.

إذا ابتدأنا بالإجابة على السؤال الثاني علينا أن نعي حقيقة جغرافية ترتبط بها حقائق أخرى سياسية واقتصادية بل جيولوجية أيضاً. فجبال القوقاز بمرتفعاتها الشاهقة وامتدادها في جنوب روسيا تسعمائة ميل، من بحر قزوين إلى البحر الأسود، تمثل حاجزاً طبيعياً أو

جداراً مانعاً يعوق حركة الجيش الروسي عن الوصول إلى المناطق الشاسعة فيما وراء القوقاز وفي آسيا الوسطى كلها، ومن ثم فقد كانت جبال القوقاز ومقاومة شعوب القوقاز هما العقبة التي وقفت حائلاً دون التوسع الإمبريالي لروسيا القيصرية لأكثر من قرنين.

حقائق تاريخية ومواجهات:

هناك بعض حقائق تاريخية لابد أن يعيها أي دارس لهذه المنطقة، تتصل بالفترة التي سبقت امتداد الحدود الروسية إلى القوقاز الشمالي من أهمها:

١- أن الإسلام هو الذي كان يحكم هذه المنطقة بما في ذلك روسيا نفسها.

٢- لم يكن اسم روسيا- في الحقيقة- متداولاً ولا معروفاً عندما زحف المد الإسلامي عبر جبال القوقاز ليسيطر على مساحة كبيرة من أوروبا الشرقية مشتملة على إمارة "موسكوفيا"، وكانت إمارة صغيرة لا تزيد مساحتها عن ٢٥٠ كيلو متراً مربعاً، وظلت هذه الإمارة تابعة لحكام الأسرة المالكة المعروفة باسم القبيلة الذهبية الذين حكموا امبراطورية إسلامية شاسعة من حدود الصين إلى شبه جزيرة القرم، حتى سنة ١٤٨٠م.

٣- في الوقت الذي كانت فيه الصراعات الداخلية بين خانات القبيلة الذهبية تضعف سيطرتها وتوهن قواها كانت موسكوفيا تتقوى وترقب الموقف لتبدأ توسعها في الوقت المناسب.

٤- في عهد إيفان الرهيب ملك روسيا غزا غرب سيبيريا واستولى سنة ١٥٥٢م على قازان في منطقة الفولجا ثم على استراخان سنة ١٥٥٦م. وكانت هذه أول المناطق الإسلامية التي سقطت في يد روسيا القيصرية.

٥- في سنة ١٦٠٤م قام القيصر "بوريس جودونوف" بهجوم كبير على داغستان لاحتلالها، ولكن انتهت حملته العسكرية بكارثة كبرى، فقد أبيد الجيش الموسكوفي على أيدي الداغستانيين، الذين دمروا القلاع الروسية على أنهار سولاك وسونجا وتريك، وأجبرت القوات الروسية الباقية على الانسحاب إلى استراخان.

٦- شهدت المنطقة صراعات محلية بين القيادات القوقازية أثارت شهوة روسيا للغزو من جديد، خصوصاً بعد نجاحها في القضاء على إمارة القرم سنة ١٧٨٣.

٧- من سنة ١٧٨٣ وشعوب القوقاز، أو الجبليون- كما عرفوا في التاريخ الروسي- في حرب متصلة مع روسيا حتى اليوم.

من أعنف المواجهات وأشهرها في التاريخ، المقاومة الباسلة التي قادها الإمام "منصور أو شورمه" ضد القوات الروسية، حشد فيها الإمام منصور مجاهدين من الشيشان وداغستان وكوبان في معارك استمرت ثمانية أعوام من سنة ١٧٨٣ إلى ١٧٩١م.

كان أكبر انتصار حققه المسلمون في ذلك الوقت هو تدمير القوات الروسية على ضفاف نهر سونجا سنة ١٧٨٥م، وكانت هذه أكبر هزيمة أصابت جيوش القيصرة كاترين الكبرى.

الإمام شامل:

استمرت المواجهات بين الروس والقوقازيين، ولكنها لم تكن انتصارات دائمة للقوقازيين، فقد استطاعت القوات الروسية أسْر الإمام منصور سنة ١٧٩١ حيث مات في سجنه بعد ذلك بعامين، ولم تصمد القيادات الإقطاعية الضعيفة المتنافسة بعده أمام تكتيك حرب الإبادة الذي اتبعه الجنرال الروسي "ألكسي بتروفيتش أرمولوف".

ثم أشرقت في القوقاز الشمالي صفحة أخرى من صفحات الجهاد الإسلامي البطولي بقيادة الإمام شامل استمرت خمسة وثلاثين عاما (من ١٨٢٤ إلى ١٨٥٩م) خاضها فرسان من الصوفية المريدين ضد الجيش الإمبراطوري الذي أمره القيصر نيقولا بغزو شمال القوقاز والسيطرة عليه

مهما بلغت التضحيات، وكان هذا الجيش يعتبر من أقوى واعتى الجيوش في عالم ذلك الوقت، وقد اختار القيصر نيقولا لقيادة الحملة القوقازية أفضل جنرالاته، ومع ذلك استطاع الإمام شامل بمجاهديه الشيشانيين والداغستانيين- وهم أقل عدداً وعدّة- أن يوقع في صفوف الجيش الروسي هزائم مروعه وصمدت مقاومة المسلمين للغزو الروسي خمسة وثلاثين عاماً، وكان لهذه المقاومة أثر بالغ في بعث روح المقاومة وانتشار حركاتها في مناطق عدة خارج القوقاز.

وفي سنة ١٨٥٩ تمكن الجيش الروسي من محاصرة الإمام شامل وقد انقطعت صلته ببقية جنوده فاضطر إلى الاستسلام، ومع ذلك ظل الشيشانيون يقاومون السيطرة الروسية بعناد شديد مما أهاج غضب القيصر الروسي فأمر بإبادة أربعمائة ألف من السكان العزّل من السلاح، فتسببت هذه الكارثة المروعة في ثورة داخلية أطاحت بعرش القيصر.

لعلنا نقترب الآن من الإجابة على السؤال الأول الذي طرحناه فيما سبق وهو: هل اقتنع الشعب الروسي بالصورة السلبية التي كانت حكومته تبثها في دعايتها الرسمية عن القوقازي الهمجي المتوحش.. أم كانت له رؤية مختلفة عن هذا القوقازي؟.

النبيل والهمجي الوضيع:

الحقيقة التي لم تستطع الحكومة القيصرية أن تمحوها من التاريخ عن الشيشانيين وعن شعوب القوقاز الشمالي بصفة عامة، أن هذه الشعوب صمدت على مدى قرنين من الزمن أمام الغزوات الوحشية للجيوش الروسية الإمبريالية، واستهانت- في سبيل حريتها ودينها وكرامتها- بتضحيات يصعب على الخيال حصرها.

أثبتت هذه الشعوب أنها مستعصية على الاستعباد، كأنما كان قدر القوقازيين أو الجبليين (كما كان الروس يسمونهم) إما أن يحيوا مسلمين مجاهدين أو أن يموتوا شهداء دون ذلك.

من هنا برزت الصورة الأخرى للقوقازي المدافع دائماً عن حريته بجسارة نادرة، المستعد دائماً للشهادة والتضحية بنفسه، الفارس النبيل بالفطرة والطبع، ترسخت هذه الصورة في عقل المثقف الروسي ووقعت في وجدانه موقع الانبهار لتزيح أمامها الصورة التقليدية الرسمية للقوقازي المتوحش الهمجي.

كانت السلطة القيصرية في نظر المثقف الروسي سلطة جائرة مستبدة يساندها إقطاع بشع يفرض عبودية على الفلاح الروسي لا نظير لها في أي إقطاع آخر، ومن ثم كان نفور المثقف الروسي من المسلك العدواني

للحكومة الروسية تجاه الشعوب القوقازية، وهو مسلك لا تبرره إلا الأطماع الإمبريالية، مجرد من أي دوافع حضارية كما تزعم.

وقد انعكس هذا في الأدب الرومانسي الذي أبرز الصورة المعاكسة للصورة الرسمية عن القوقازيين، حيث تبنى عنهم صورة الحرية والنبل الفطري، وهذا في حد ذاته انفصال واحتجاج عقلي على صورة القوقازي الهمجي المتوحش، واحتجاج ضمني على السلطة الإمبريالية الغاشمة والإقطاع الجائر.

يتجلى هذا الموقف في الملحمة الرائعة لأمير شعراء روسيا ألكسندر بوشكين (١٧٩٩-١٨٣٧) المسماة "أسير القوقاز"، فالصورة التي يجسّدها بوشكين في هذه القصة الشعرية عن القوقازي الجبلي تعتبر انقلاباً ثورياً على الصورة الإمبريالية القبيحة له. كذلك رأينا أن قراء بوشكين يرفضون هذه الصورة الإمبريالية ويتوحّدون مع الرؤية الرومانسية التي يجسدها القوقازي الحر الثائر على العبودية والقيود، الذي يقبل على الموت بروح بطولية، وهكذا ثبت في وجدان المثقفين الروس أن الجبل هو مهد الحرية، وأصبح الهرب من المجتمع المدني إلى الجبل حيث المغامرة والنبل البدائي حلماً يراود الخيال.

وتتأكد صورة النبل البدائي في الأدب الروسي عند عملاق آخر هو تولستوي في روايته "قوزاق الترك" ثم في روايته الأخرى "الحاج مراد"

الذي يَعتقد أنه أنجزها بين عامي ١٨٩٧ و ١٩٠٤م، وفيها يهدم تولستوي أسطورة الانتصار القيصري في حرب القوقاز، وهي رجعة أخّاذة إلى الخيط الرومانسي الذي يوثق عرى الاتصال الروحي بين الجبليين الأحرار البسطاء وبين الشعب الروسي المغلوب على أمره المتطلع أبدا إلى الحرية.

فرواية "الحاج مراد" تحكي قصة اعتداء إمبريالي دبرته بليل نخبة روسية مستغربة وقاده القيصر نيقولا الأول. ويهاجم فيها تولستوي بعنف شديد أسطورة المجد الوطني في القوقاز، ويستنكر الحرب الوحشية التي شنها الجيش القيصري على القوقازيين، ويؤكد أن الدافع إليها لم يكن سوى الشهوة إلى سفك الدماء، متسترة في دعاية مزيفة عن حرب دفاعية ضد الآسيويين البرابرة أعداء المسيح، ووصف تولستوي جنرالات الجيش القيصري بأنهم "محطمو جماجم الأطفال في القوقاز" في حين يزعمون أنهم ذهبوا إلى برابرة آسيا يحملون رسالة التنوير.

لم يكن عجيباً إذن أن يهرب آلاف من الجنود الروس من الجيش الإمبراطوري إلى الجبال للالتحاق بقوات الإمام شامل، ويعتنقون الإسلام وينشئون أسراً هناك.

ولكي يشوّه الجنرالات هذه الحقيقة أشاعوا فرية مؤداها أن الإمام شامل كان يعد الهاربين من الجيش الروسي بالحرية وامتلاك أراضي

القوقاز. والحقيقة أن الجاذبية الآسرة للكتابات الرومانسية عن القوقاز، وفكرة الفرار إلى الحرية والنقاء بعيداً عن الحياة الكئيبة تحت وطأة النظام الإمبراطوري القمعي كانت هي الدافع الحقيقي وراء هرب الجنود الروس وغيرهم من عشاق المغامرة والبطولة إلى الجبال، وليست المنافع المادية كما يزعم الجنرالات.

كان الأديب الروسي "ليرمونتوف" في صدر شبابه طالباً بالأكاديمية العسكرية في بطرسبورج (من سنة ١٨٣٢ إلى ١٨٣٤م)، وقد أشار في كتاباته إلى واقعة شاهدها بنفسه حيث قال:

"كان طلاب الأكاديمية يتحرقون شوقاً إلى جبال القوقاز وحياتها الساحرة بعد أن اطّلعوا على كتاب بوشكين "أسير القوقاز"، حتى إنهم كانوا يخفون القصة في طيات كتبهم الدراسية ليستمتعوا بقراءتها بين المحاضرات".

وعندما أعلن الجيش الروسي هزيمة القوقاز وأسر قائده الإمام شامل، أصيب الروس بصدمة عاطفية كبرى، وشعروا بخسارة روحية وانعطاف غامر نحو الأسير القوقازي الذي كان يمثل عندهم الحرية بلا حدود.

كان الروس يتابعون أخبار البطل الأسير في بطرسبورج بلهف شديد، فلما علموا بعزم الحكومة إخراجه من السجن وترحيله هو وزوجته شوانيت إلى منفاهما في منزل ببلدة "كالوجا" تجمع الناس أمام أبواب

السجن ليلقوا عليه نظرة وداع أخيرة، فلما رأوه خارجاً مكبلاً بالأغلال تحت حراسة مشدّدة للقوات الروسية أخذوا يهتفون له: "وداعاً يا شامل.. ابق معنا يا شامل.. قولوا له إننا نحبك حباً شديداً، قولوا له إننا ندعو لك بإقامة طيبة يا شامل.."

استغرق الروس في حلم الحرية الآسر الذي سقط رمزه الأكبر الإمام شامل بعد خمسة وثلاثين عاماً من المقاومة، لم يكن لديهم مساحة أخرى للتفكير في هذه الحقيقة: ماذا حقق الغزو الروسي للقوقاز من الوعود الفضفاضة بالتحضّر والتقدم؟ شخص واحد سأل نفسه هذا السؤال هو الكاتب الروسي روسكو سلوفو (سنة ١٨٦١) وأجاب على سؤاله فقال متحسّراً: "لم يحقق الغزو للقوقاز التعيس سوى تصدير الفودكا والقمار والأمراض الجنسية".

كانت الحكومة الروسية في استطاعتها قتل الإمام شامل كما فعلت مع آلاف القوقازيين قبله، ولكنهم أمام العواطف الجياشة التي أحاطه بها المواطنون الروس أبقت عليه لتروّج لنفسها صورة الدولة التي تدع الجبلي الصالح يتألق، لا كرمز للثورة والحرية هذه المرة، ولكن كرمز لقوة روسيا القيصرية وسماحتها".

ولكنها شرعت على الفور تبث الصورة السلبية في الثقافة الروسية من خلال برامج التربية والتعليم، الصورة الكريهة للهمجي المعتدي

المناهض للحضارة المسيحية. أبرز مثال على ذلك كتاب "رستوسلاف فاديف" بعنوان: ستون عاماً من الحرب في القوقاز (نشر سنة ١٨٦٠م، تنعكس فيه الصورة الإمبريالية عن القوقازي الهمجي الوضيع آكل لحوم البشر، الذي كان على روسيا اقتلاعه من جذوره.

ويردد الكولونيل "ديمتري روما نوفسكي" نفس النغمة في سلسلة محاضراته العامة بقاعة "باساج" في سان بطرسبورج خلال نفس الفترة: "انتصار روسيا المسيحية على المسلمين الأشرار".

ستالين يبيد الشيشانيين:

إنها نفس الصورة السلبية التي روجها ستالين عندما أقدم على جريمته الكبرى باستئصال الشعب الشيشاني من أرضه ونفيه إلى سيبيريا بتهمة مزيفة زعم فيها خيانة الشيشانيين وانحيازهم إلى العدو النازي أثناء الحرب العالمية الثانية.

في ٢٣ فبراير ١٩٤٤م اقتحمت القوات السوفيتية الأراضي الشيشانية وأمرت السكان بالرحيل، كانت قد أعدت لهم شاحنات النقل المخصصة لقطعان الماشية، فحشرت فيها ثمانمائة- ألف شيشاني، بعضها اتجه إلى صحراء كازاخستان وأكثرها إلى سيبيريا.

استمرت الرحلة أياماً طويلة بدون ماء ولا طعام ولا وسائل للنظافة، كتل بشرية متراصة في جو ثلجي عاصف، من يصرخ مستغيثاً أو يبدي احتجاجاً كان الحرس يطلقون عليه النار فوراً ثم يلقي به في عرض الطريق- الشيوخ والأطفال والمرضى الذي لم يحتملوا عذاب الرحلة إلى الجحيم قضوا نحبهم قبل أن يصلوا إليه. ونتيجة لسياسة ستالين الإرهابية تم الإجهاز على أكثر من نصف الشيشانيين، ومزق ستالين أراضي جمهوريتهم فوزعها بين الجمهوريات المجاورة- بعد موت ستالين تمت تبرئة الشيشانيين من تهمة الخيانة وسمح لمن بقى منهم على قيد الحياة بالعودة إلى وطنهم، ولذلك فإن الشيشانيين الحاليين يعتبرون أبناء وأحفاد الشيشانيين الناجين من الكارثة، وبينهم قلة من الشيوخ الذين عاشوا الكارثة أطفالاً لا تزال ذاكرتهم تحمل في أعماقها التفاصيل المروعة لرحلة الجحيم.

يلتسن وسياسته تجاه الشيشان:

لم تكد تمض على هذه الكارثة خمسين عاماً حتى جاء الرئيس الروسي يلتسن يعيد إلى الأذهان صورة الشيشاني الهمجي المتمرد على النظام والقانون ويشن حملة عسكرية على الشعب الشيشاني في ديسمبر ١٩٩٤ بحجة الحفاظ على الدستور والدفاع عن السيادة الروسية التي

انتهكها الرئيس الشيشاني دوداييف بإعلانه الاستقلال. ولكن تنتهي الحملة بهزيمة مهينة للجيش الروسي في سنة ١٩٩٦م.

ولذلك يعود يلتسن مرة أخرى بعد ثلاث سنوات وقد استعد لحملة ثانية انتقاماً من هزيمته السابقة، ويعلن رئيس وزرائه فلاديمير بوتين تبريراً لهذه الحملة أن الجيش الروسي ذاهب لمحاربة الإرهابيين وقطاع الطرق واستئصال الأصوليين الإسلاميين وإعادة الأمن والنظام إلى الشيشان.

فهل يصدق عاقل أن تجرّد دولة كبرى جيشاً من أقوى جيوش العالم بدأ بمائة ألف جندي.. يتضخم عدده مع مرور الأيام لتحارب قطّاع طرق وعصابات إرهاب، تقول إحصاءاتها الرسمية أن عددهم ثلاثة آلاف إرهابي!؟

وهل المقصود حقاً هو استئصال الإرهاب أم استئصال شعب عنيد يصر على حريته مهما كانت التضحيات؟

ذكرت فيما سبق أن الحرب الشيشانية المعاصرة ليست حربين ولكنها حرب واحدة متصلة الحلقات، وأقول إنها لم تبدأ سنة ١٩٩٤ ولكنها بدأت في الحقيقة سنة ١٩٩١ فور إعلان الرئيس دوداييف استقلال بلاده وتمثلت هذه البداية في الحصار الاقتصادي الذي فرضته

الحكومة الروسية على الشيشان، وتوقفت عن دفع معاشات كبار السن وعن الدعم المالي المقرر لها في الميزانية الفدرالية.

وعندما نجح ألكسندر ليبيد في إنجاز اتفاقية سلام مع الحكومة الشيشانية تعهدت الحكومة الروسية بإصلاح ما دمرته الحرب في الشيشان حيث قدرت خسائرها بحوالي ٣٤ مليار دولار. ولكن الحكومة الروسية لم تنفذ تعهداتها، ولم تف بالتزاماتها الأخرى التي نصّت عليها الاتفاقية، فقد اعتبرت هذه الاتفاقية مجرد هدنة لالتقاط الأنفاس والإعداد لجولة أخرى من الحرب.

ولذلك بدلاً من أن تساعد روسيا الحكومة الشيشانية في إعادة الإعمار والسيطرة على الأوضاع المتردية بسبب الحرب والدمار، إذا بها تعمل على إشاعة مزيد من الفوضى والمعاناة: أولاً بعدم تنفيذ بنود اتفاقية السلام التي وقعتها مع الحكومة الشيشانية، خصوصاً ما يتعلق بالتعويضات والالتزامات المالية، وثانياً بالعمل السري داخل الأراضي الشيشانية، بغرض تحقيق أربعة أهداف أساسية:

١- خلق كارثة إنسانية واجتماعية هائلة تعجز الحكومة الشيشانية- بإمكاناتها الهزيلة- عن مواجهتها.

٢- إظهار الحكومة الشيشانية بمظهر العاجز عن الحكم والسيطرة وعدم القدرة على إنقاذ شعبها من المعاناة.

٣- العزل الدولي التام للحكومة الشيشانية حتى لا تتمكن من تطوير استقلالها بحكم الأمر الواقع الذي ينعكس في نصوص الاتفاقية إلى اعتراف دولي بالسيادة.

٤- تشويه صورة الشعب الشيشاني أمام الجماهير الروسية وأمام العالم الخارجي حتى لا ينهض أحد لمساندتها في الجولة التالية من الحرب كما نشاهد تجلياتها في الوقت الراهن.

آثار الحرب الروسية في الشيشان:

نحاول فيما يلي استعراض أبرز آثار الكارثة التي خلفتها الجولة الأولى (١٩٩٤-١٩٩٦م) من الحرب الشيشانية، وما تلى ذلك من عمليات سرية وحملات إعلامية ضد الشيشان وشعبها، هي في الحقيقة استمرار للحرب الروسية التي بدأتها روسيا فور إعلان الشيشان استقلالها سنة ١٩٩١م.

أولاً- خسائر فادحة في الأنفس:

ففي الشيشان التي لا يزيد تعداد سكانها عن مليون وثلاثمائة ألف نسمة قتل الروس منهم أربعين ألف مدني، وفُقد ألفان من السكان، ألقت المخابرات الروسية القبض عليهم في بيوتهم وفي الشوارع ولم يعرف مصيرهم حتى هذه اللحظة.

وعلاوة على القتلى خلّفت الحـرب ٧٤ ألـف مُعاق منـهم ١٩ ألـف طفل، وفقد منهم ألفان حاسة الإبصار، وألـف وخمسمائة فقدوا السـمع والنطق، وفي الشيشان ١٢ ألف طفل يتيم فقدوا آباءهم، ومن الشيشـانيين ٣٥٪ دمرت منازلهم فأصبحوا بلا مأوى، و٨٥٪ لا يجدون عمـلاً، وبـين كل عشرة أسر شيشـانية هنـاك تسـعة أسـر لا تجـد مـا يكفـي لطعامـها اليومي، وبدأ الناس بالفعل يأكلون علـف الماشية، فقد دمـرت الحـرب المصانع وقتلت معظم حيوانات المزارع.

ثانياً- تدمير البنية الأساسية للنظام التعليمي:

كان تدمير النظـام التعليمـي أول مـا استهدفته القـوات الروسـية في الحرب، فقد دمرت الجامعة الشيشانية إلى جـانب ثمانيـة معـاهد فنيـة للدراسات العليا، وأربعة مدارس فنية متوسطة، وأربع مراكز للأبحـاث، إلى جـانب التدمـير المتعمـد لقاعـات المحـاضرات والأرشـيف الوطـني والمتحف الوطني.

ثالثاً- كارثة بيئية وصحية:

دمرت القوات الروسية آبار البترول فتدفقت آلاف الأطنـان المشـتعلة منه في حرائق لوثت الهواء والتربـة وأحدثـت كارثـة بيئيـة لا تقـل عـن كارثة الكويت في حرب الخليج الثانية.

وتدهورت الأوضاع الصحية للشعب الشيشاني خصوصاً بين الفئات الضعيفة والأكثر فقراً من النساء والأطفال وكبار السن، نتيجة لسوء التغذية وتدنّي الخدمات الصحية وافتقاد النظافة والمرافق الصحية، والتلوث البيئي الذي أصاب المياه والهواء.

ولذلك ارتفعت نسبة الوفيات بين الأطفال (١٢٠ من كل ألف طفل يموتون)، وطبقاً لأبحاث دولية أجريت وُجد أن كل ثاني طفل مولود يموت في شهره الأول، وأن الأطفال الشيشانيين يعانون من الأنيميا وفقدان سوائل الجسم، ويولد كثرة من الأطفال مرضى وضعاف البنية ومشوهين. وهناك قصور في الخدمات الصحية للحوامل والتوليد، فقد دمر الروس المستشفيات متعمدين، ولا توجد في المستشفيات الباقية سوى ٦.٦٪ من الاحتياجات المطلوبة للأطفال.

وفي السنتين السابقتين للجولة الثانية من الحرب انخفض معدل المواليد مرتين ونصف مرة عن معدلاتها الطبيعية السابقة.

ويوجد نقص هائل في الأدوية والأدوات الطبية حتى أصبحت الحقنة الواحدة يتكرر استخدامها لمرضى آخرين.

وهناك يأس عام ورعب دفين يطل من عيون الأطفال الذين روعتهم أحداث الحرب واجتثتهم من بيوتهم وحياتهم المستقرة، وألقت بهم في

الملاجئ، وأصبحت الكثرة الغالبة منهم لا يعرفون طريقهم إلى المدارس التي دمرها الروس.

النساء الشيشانيات مشكلاتهن الصحية أكثر حرجاً خصوصاً الحوامل منهن فقد دمرت المؤسسات التي كانت ترعاهن، وأول ما يعانين منه إصابات الجهاز الهضمي التي تؤدي إلى الوفاة بنسبة ٨٠٪، هذا إلى جانب أمراض الكبد الفيروسية وسرطانات الدم، وقد وُجد أن امرأة من كل خمسة نساء حوامل تحتاج في الولادة إلى عملية قيصرية.

استشرى مرض الدرن الرئوي (السّل) بشكل وبائي، ولا يوجد مكان للعلاج، وإذا وُجد المكان فلا يوجد أطباء ولا أدوية كافية، فالمستشفيات كلها تقريباً محطمة، والتي لم يتم تحطيمها معطلة أو لا تعمل بكامل طاقتها، خصوصاً بعد رحيل هيئة الصليب الأحمر الدولية على أثر مقتل ستة من موظفيها على يد عملاء المخابرات الروسية.

يقول الكاتب "ليوما أوثمانوف": "للولايات المتحدة موقف غريب فقد كان في إمكانها المساعدة في المجال الطبي وعلى الأخص مقاومة وباء الدرن الرئوي، فالشيشان في حاجة ماسة إلى أدوية وإلى أطباء وفنيين، وقد استوعبت الولايات المتحدة خمسة وثلاثين ألف طالب روسي يتلقون تعليماً وإيواءً كاملاً بالمجان، ولكن ليس بينهم طالب واحد من الشيشان. هؤلاء الطلاب مبعوثون في إطار برنامج يسمى "المشاركة من أجل

الحرية"، من شروطه التي يؤكدون عليها أن تمنح المساعدة لمن هو أكثر حاجة إلى التعليم، والسؤال هو "أليس الشيشانيون بأوضاعهم المأساوية التي تسببت روسيا في إحداثها هم أولى الناس بأن يكون لهم نصيب في هذا البرنامج!؟".

ويلفت الكاتب نظرنا إلى واقعة أخرى أشد غرابة يقول: "عندما تلقّت روسيا شحنة ضخمة من القمح والأغذية الأمريكية لم تكن بحاجة حقيقية ملحّة لها، فقد كان محصول القمح الروسي في تلك السنة وافراً، ولذلك قامت روسيا ببيع الفائض منه لدول أخرى، ولو كانت روسيا تعتبر الشيشان جزءاً من أراضيها كما تزعم لقدّمت إلى شعبها الجائع شيئاً منه، ولكن الشيشان تكون جزءاً لا يتجزأ من روسيا عندما تشن عليها روسيا حرب إبادة، وتصرخ في وجه العالم ألا يتدخل أحد لأنها قضية داخلية تمس السيادة الوطنية لروسيا، وهذا منطق يكشف ببساطة حقيقة الموقف الروسي، فروسيا تريد عودة الشيشان إليها ولكن بدون الشعب الشيشاني".

وإذا لم يكن من الأمر بدٌّ فليكن شعباً من المرضى والعجزة والمتسولين ومن الجهلة والعاطلين، شعب من الأموات لا شعب حي يناضل من أجل حريته وعقيدته، ومن أجل حياة كريمة كما كان شأنه دائماً عبر القرون.

عمليات إرهاب مريبة وحملات تزييف إعلامي:

إلى جانب الكارثة التي أحدثتها روسيا في الشيشان بسبب الحرب وتواصل العمل على تفاقمها شرعت- بعد الحملة العسكرية الأولى- تلعب لعبة قذرة جنّدت فيها سبعمائة عميل قوقازي من العاطلين ومن رجال عصابات المافيا الروسية، للقيام بعمليات إرهابية واختطاف رهائن، دبرتها أجهزة المخابرات الروسية ثم نسبها الإعلام الروسي إلى الشيشانيين، والهدف من ذلك واضح: زعزعة الأمن والنظام في الشيشان، وتشويه صورة الحكومة الشيشانية والشعب الشيشاني في نظر الرأي العام الروسي والعالمي، من أبرز هذه العمليات:

١- اختطاف فريدكوني وقتله: هذا الرجل الأمريكي جاء إلى الشيشان سنة ١٩٩٥ممثلاً لمؤسسة سوروس الخيرية لإنشاء برنامج واسع النطاق للمساعدات الإنسانية في الشيشان، وهو رجل له خبرة في العمل الإنساني استمرت ربع قرن شاهد فيها ثلاثين حرباً، قال في تصريح صحفي له معلقاً على ما رآه من آثار الحرب الشيشانية: "هذا أبشع مكان في العالم شاهدته في حياتي، فالحرب الشيشانية لا يمكن مقارنة بشاعتها بأي حرب أخرى من حيث التدمير الذي ألحقته بالمناطق السكنية"، كان في هذا اتهام غير مباشر لوحشية الحملة الروسية على

الشيشان. وفجأة اختفى فريدكوني ولم تظهر جثته حتى الآن، ومن ثم أغلقت صفحة برنامج سوروس للمساعدات الإنسانية في الشيشان إلى الأبد.

٢- كان للصليب الأحمر الدولي بعثة كبيرة في الشيشان أنقذت فيها مئات الجرحى من السكان المدنيين ومن المقاتلين الشيشانيين أثناء الحرب، ولذلك كان للصليب الأحمر منزلة رفيعة في نفوس الشيشانيين وقد استمرت البعثة في الشيشان بعد الحرب لتعويض القصور في الخدمات الصحية التي دمرتها الحرب، ولكن حدث في سنة ١٩٩٦م أن اقتحم مجهولون مساكن العاملين في البعثة تحت جنح الليل وقتلوا منهم ستة أفراد وهم نيام بطريقة بشعة، ومرة أخرى تسارع أجهزة الإعلام الروسية فتنسب الجريمة إلى العصابات الشيشانية من الأصوليين الإسلاميين، وتصفهم بأنهم مجرمون أغبياء لأنهم يقتلون الناس الذين جاءوا لمساعدتهم.

كان من نتيجة الحادثتين المذكورتين أن أحجمت منظمات دولية أخرى عن تقديم خدمات إنسانية كانت تعتزم تقديمها إلى الشعب الشيشاني المنكوب.

٣- في ٨ ديسمبر سنة ١٩٩٨ اكتشفت حادثة قتل مروعة راح ضحيتها ثلاثة بريطانيين ونيوزيلندي كانوا يعملون خبراء لشركة

اتصالات بريطانية في تركيب شبكة تليفونات مستقلة، تستوعب ثلاثمائة ألف خط تليفوني في جمهورية الشيشان، وكان هذا أحد المشروعات المهمة التي عوّلت عليها الحكومة الشيشانية لربط بلاد الجمهورية بعضها ببعض وتسهيل الاتصالات الخارجية بعد أن نسفت القوات الروسية الشبكة القديمة ولم تترك عموداً واحداً من أعمدة التليفونات قائماً في الأراضي الشيشانية.

اختفى الخبراء الأربعة يوم ٣ أكتوبر ١٩٩٨ ثم ظهرت رءوسهم مقطوعة ومُلقاة بالقرب من قرية "أسينو فسكايا" على بعد ٢٥ ميلاً غرب جروزني يوم ٨ ديسمبر ١٩٩٨.

وزعمت أجهزة الإعلام الروسية أن القتلة هم إرهابيون شيشانيون، وفسرت الحادث بأنه اختطاف رهائن من أجل الحصول على فدية من الحكومة الشيشانية وأن هذه الحكومة فشلت في التفاوض مع الخاطفين أو عجزت عن استدراجهم والقبض عليهم فقاموا بقتل الرهائن الأربعة.

ولكن حدث خطأ صغير من جانب المخابرات الروسية ألقى بكثير من الشكوك حولها، فقد سرّبت شريط فيديو إلى التلفاز يتحدث فيه أحد الرهائن بأن شبكة التليفونات التي كان يزمع إنشاؤها في الشيشان مصممة بحيث تسمح للمخابرات الأمريكية والبريطانية والألمانية والإسرائيلية بالتجسس من خلالها، وكان المقصود من إشاعة هذا الخبر إثارة سخط

الرأي العام الروسي على الشيشانيين العملاء الذين يتعاونون مع أعداء روسيا.

وتساءل المحللون السياسيون: من له مصلحة في إشاعة خبر كهذا أكثر من السلطات الروسية؟، وإذا كان الخاطفون هدفهم هو الحصول على المال فما الذي يهمهم إذا كانت الشبكة للتجسس أو لغيره؟ وما الذي يجعلهم حريصين على انتزاع معلومات كهذه من الرهائن وإذاعتها؟، وإذا كانت حكاية التجسس حقيقة فهل من المعقول أن تتطوع الشركة التي صممت الشبكة بإذاعة هذا السر إلى مهندسين كل مهمتهم كانت منحصرة في تنفيذ تصميمات جاهزة لا أكثر ولا أقل؟.

لذلك يرى هؤلاء المحللون أن الرهائن قد تعرضوا للتعذيب الشديد على يد المخابرات الروسية للإدلاء بتصريحات أمليت عليهم. وقد ناشد الرئيس الشيشاني أصلان مشهدوف الحكومة البريطانية إرسال خبراء للتحقيق في هذا الحادث وألح في طلبه، ولكن يبدو أن الحكومة البريطانية كانت تعلم بحقيقة القتلة فلم ترد إحراج أصدقائها الروس واكتفى وزير الخارجية البريطاني بالقول "إننا لا نريد أن نعرّض مزيداً من الأشخاص لمثل هذه المخاطر".

لو تأملنا في معظم حوادث الخطف والقتل لوجدنا أنها وقعت قريباً من مدينة (أوروس مارتان)، وهي مدينة معروفة بأنها مركز المعارضة

السياسية في الشيشان، المناوْئة للحركة الإسلامية، ومعـروف أن قيـادات هذه المعارضة من الشيوعيين، ولذلـك نجـت هـذه المدينـة مـن الغـزو ولم يتعرض لها الروس في الحملة العسكرية السابقة بـالقصف والتدمـير، ولم يتعرض سكانها للتشريد والـترحيل كما فعـل الـروس في المـدن الأخـرى وفجأة- بعد انتهاء الحرب- تظهر بها عصابات إرهابية من الإسـلاميين الأصوليين تخطف الأجانب وتقتلهم..! من الواضح أنـه تزييـف إعلامـي خال من الذكاء.

ولكن وقعـت حادثـة اختطـاف معينـة كشـفت عـن الوجـه الحقيقـي للمجرمـين الذيـن يقومـون بـهذه العمليـات، فقـد تم اختطـاف الفرنسـي "فنسنت كوشـيتل"، وكـان ممثـلاً لمديـر هيئـة الإغاثـة بـالأمم المتحـدة، وكالعادة نسبت وسائل الإعلام الروسية عملية الاختطـاف إلى الأصوليـين الإسلاميين، ولكن المخابرات الفرنسية كانت تعلم حقيقة أخـرى ولذلـك توجـهت الحكومـة الفرنسـية إلى السـلطات الروسـية مباشـرة، وتدخـــل الرئيس الفرنسي شيراك بنفسه حتى أطلق سـراح الرجـل بعـد أن قضـى ٣١٧ يومـاً في الأسـر، وهكـذا أصبـح مـــن الواضـــح أن عمليـــات القتـــل واختطاف الرهائن كانت عمليات روسية لا علاقة للشيشانيين بها، ومما يعزز هذا الاعتقاد حادث إجرامي وقع في نهاية صيـف١٩٩٨م اسـتهدف خبراء كـانوا يشـرفون علـى أول محطـة خدمـة للإنـترنت في الشيشـان، كانت الحكومـة الشيشـانية تسـخدمها لتبـادل الرسـائل والمعلومـات مـع

ممثليها في الخارج، فقام مجرمون مجهولون بقتل هؤلاء الخبراء، في هـذه المرة لم يكن هناك رهـائن ولا طلـب فديـة ماليـة ولا سـرقة، وإنمـا قتـل سياسي مقصود به نسـف هـذه الخدمـة الحيويـة الـتي كـانت الحكومـة الشيشانية في أمس الحاجـة إليـها، وبطبيعـة الحـال لا يمكـن أن يـهتم المجرمون وقطاع الطرق بخبراء نظم المعلومات وتكنولوجيا المعلومات وهـم لا يدركون طبيعة عملهم ولا قيمته، فتلك أمور تقع في إطار اهتمام أجهزة المخابرات واختصاصها.

في كل هذه الوقائع لم تستند التهم التي وُجّهت إلى الشيشانيين على حقائق ولا أدلة ولا أي مناقشات منطقية، وإنما مجـرد هجـوم وسـباب، فعلت هذا الصحف الروسية وتابعتها صحيفة بريطانية بها متعصبون ضد الإسـلام والمسـلمين هـي الإندبندنـت، ففـي عددهـا الصـادر بتـاريخ ٢٤ ديسمبر ١٩٩٨م كتب الصحفي "ريفز": "كيـف سـقطت الشيشـان الـتي صفق لها الغرب مرةً لروحها الاسـتقلالية إلى هـذا المسـتوى مـن الفوضـى والبربرية".

ثم حاول تبرير العدوان الروسي على الشيشـانيين بأنـه كـان نتيجـة لسلوكهم وميولهم الإجرامية، وأن عدم خضوعهم واحترامـهم للقـانون لـه جذور عميقة في التاريخ وفي تكوين الشـخصية، وبلـغ بـه السـفه أن زعـم بأنها "مشكلة جينات في خلايا هؤلاء المسلمين". يعود "مسـتر ريفـز" إلى

الاتهام التقليدي الرسمي للسلطات الروسية فيقول إن القوقاز كلـه دمـوي متوحش، وكان الأجدر به لو كان منصفاً لتوجه بـهذا الاتـهام إلى الذيـن قاموا بالعدوان الغاشـم علـى الشيشـان والشـعب الشيشـاني، وتسـببوا في تدمير بلاده وتخريب مؤسساته ووضع حكومته في موضع العاجز الذي لا حول له ولا قوة. لو كان مستر ريفز منصفـاً لاسـتمع إلى أصـوات روسـية حكيمة عارفة ببواطن الأمور مثل أرملة "أنوريا زخاروف" الـتي صرحـت في لقاء إذاعي لراديو الحرية يـوم ١٧ يوليـة ١٩٩٦م حيـث قـالت: "إن الحرب الشيشانية جريمة تاريخية ارتكبتها روسيا ضد شعب برئ".

لعل "إلينا بونر" كانت تقول هذا الكلام وهي تسـتحضر في ذاكرتـها تقاليد الفروسية الشيشانية النبيلة، وتـاريخ الـروس العسـكري الشـائن في حروب القوقاز، فقد كان من الوسائل التي اشتهرت عنهم خطف الرهائن المدنيين وإن شئت فاقرأ كتابـاً نشـر في بطرسـبورج سـنة ١٩٩٥م بعنـوان روسيا والقوقاز (ص٢٥) "Russia and Caucasus"، يقول قائد روسي اسمه "أ. ارمولوف" موجّهاً كلامه إلى جنـوده: "حـذاري أن تخرجـوا مـن أي معركة قبل أن تأسروا بعـض الرهـائن.. هـؤلاء برابـرة وإذا ظـهر ضعفنـا أمامهم تعنتوا.. وبهذه الرهائن نستطيع أن نملي شروطناً عليهم".

كلام "إلينا بونر" يؤكده برامج تلفازية في موسكو فضحـت السـلطات التي لا تزال تنتهج نفس الأساليب الإجرامية، ففـي ١٧ نوفمـبر ١٩٩٨م

ولمدة أسبوعين، أذاع التلفاز تحقيقات ومناقشات عن ترتيبات أمنية تجريها أجهزة سرية، وعن أوامر أصدرتها لعملائها بقتل وتصفية عدد من رجال الأعمال وشخصيات سياسية، وخطف أفراد، هذه الاعترافات لم تشر إلى الشيشان بصفة خاصة، ولكن إذا كان من هذه الأوامر قتل رجل مثل "بوريس بريزوفسكي" المسئول عن "الدول المستقلة حديثاً" فهل تتعفف هذه الأجهزة عن عمليات خطف وقتل تقوم بها في الشيشان ضحاياها من الأجانب؟.

وزارة الداخلية تؤلف كتاباً عن الشيشان:

الكتاب عنوانه "النظام الإجرامي: الشيشان من ١٩٩١ إلى ١٩٩٥م"، عندما تريد السلطات الأمنية في دولة ما أن تروج لدعاية ضد فئة من الناس، أو ضد فكرة معينة فإنها عادة ما توعز إلى أجهزتها لتستأجر لذلك مؤلفاً أو حتى تختلق اسماً لمؤلف غير موجود، لكن في حالة روسيا وقد أصبحت دولة مضطربة وأجهزتها مشوشة عمدت وزارة داخليتها إلى تأليف هذا الكتاب ونشره بمعرفتها.

الفكرة الأساسية للكتاب تتركز حول تصوير الشيشان بأنها دولة عبيد، وأحد فصوله يحمل عنوان "عبيد القرن العشرين"، وهو محاولة للتأثير على القارئ بل حملة على الاعتقاد بانحطاط أخلاق الشيشانيين

حيث يصفهم بالوحشية والسادية والتعصب والفاشية، بل يتهمهم بأنهم مسئولون عن إدمان الشباب الروسي للفودكا وإغرائهم بالإفراط فيها. الكتاب حافل بمثل هذه الاتهامات والسباب المقذعة دون تقديم أدلة أو وقائع تثبت هذه الاتهامات، وتتلخص رسالة الكتاب في آخر عبارة وردت به: "لقد نفد صبر الشعب الروسي.. فمن لهؤلاء المجرمين لكي يوقفهم عند حدودهم؟".

الرسالة واضحة وبسيطة إلى درجة السذاجة: اتهام شعب بأكمله بالإجرام.. ومن ثم وجب القضاء عليه، وفي هذا تهيئة للرأي العام الروسي للحرب القادمة ضد الشيشان.

يسوق الكتاب اتهاماته للشيشانيين من خلال مجموعة من الحكايات المختلقة أجريت على ألسنة أشخاص بأسماء روسية اعتبرهم الكتاب شهود عيان، ولكن الذي يتمعّن في هذه الشهادات يفاجأ بأخطاء جغرافية وإثنية (عرقية) مثيرة للضحك، ويبدو أن المؤلفين الذين أسند إليهم تلفيق هذه القصص من الجهل وضحالة الثقافة إلى الدرجة التي يخلطون فيها بين القوقاز وآسيا الوسطى. ولأن تزييف الحقائق واختلاق الوقائع كان هو الطابع العام للكتاب أصيب المثقفون الروس بخيبة أمل، ولذلك عزوا هذه الفضيحة إلى ضعف ميزانية وزارة الداخلية التي لم

تستطع استئجار مؤلفين أفضل يجيدون حبك القصص ولا يتورطون في هذه الأخطاء الفاحشة.

هذه الصورة الشائنة للشعب الشيشاني التي حاول كتاب وزارة الداخلية ترويجها يدعمها الإعلام الروسي المملوك للدولة، فمن نماذجه التلفازية: "الشيشانيون مصاصوا دماء"، وفي الصحافة كتب ميخاييل بارسكوف في "أخبار موسكو" (٢٠ يناير ١٩٩٦م يقول: "الشيشاني قادر فقط على القتل، فإذا لم يستطع ذلك فإنه يسطو، فإذا لم يستطع السطو يسرق، وليس هناك نوع آخر من الشيشانيين خلاف ذلك".

استفزت هذه الصورة المزورة عقولاً روسية نظيفة مثل "فاليري تشكوف" مدير معهد الدراسات الإثنية والسكانية بالأكاديمية الروسية للعلوم الذي وصف هذه المحاولات بأنها مجرد دعاية روسية لا أساس لها من الصحة، نشأت قبل الحرب واستمرت أثناءها، ولذلك نُشر له مقال في "نوفو فريما" بتاريخ ١٥ إبريل ١٩٩٥م يقول فيه: "شكراً للصحافة لا في روسيا فحسب بل في خارجها أيضاً فهي التي خلقت صورة "المافيا الشيشانية" وبفضل هذه الصورة الزائفة تراجع التعاطف الروسي والعالمي عن الشيشانيين في محنتهم، ولولا هذه الصورة لكانت المساندة العالمية للشيشانيين أقوى وأبرز". لقد استفز فاليري تشكوف أكثر من هذا محاولة بعض أنصاف العلماء مثل "مادلين كارتيل" التي

سقطت في أسر الدعاية الروسية وذهبت إلى الكلام عن نظرية "مناطق الإجرام"، فرد عليها بالاستنكار قائلاً: "إنني لا أوافق مطلقاً على نظرية "مناطق الإجرام" هذه التي يراد فرضها على عقول الناس، فهذه محض خرافة، وذلك لأن مستوى الجرائم بين الشيشانيين في موسكو ليس أعلى من مستوى الجرائم بين الجورجيين أو الروس"، ويلوّح "فاليري تشكوف" من بعيد بمافيا المال والتجارة بين الروس فيقول: "الشيشانيون ناجحون في علاقاتهم التجارية فهم ليسوا بحاجة إلى الجريمة لترويجها".

مجزرة قرية سامشكي:

للشيشانيين تقاليد راسخة في كرم الضيافة وعشق الحرية والمساواة، وروح الفروسية، مما تردد صداه في الأدب الروسي الكلاسيكي والكتابات الأخرى. وفي الحرب التي فرضتها الحكومة الروسية عليهم تصرفوا بشجاعة وكانوا أبطالاً شرفاء، فلما انتهت الجولة السابقة من الحرب وأبرمت اتفاقية سلام بينهم وبين القوات الروسية نفذوا بنودها بأمانة وشرف وأفرجوا عن جميع الأسرى الروس دون أن يمسوا أحداً منهم بسوء، أما الروس فكانوا أبعد ما يكونون عن الأمانة والشرف، فلم يعبأوا

بتنفيذ الاتفاقية التي وقّعوها ولم يفوا بوعودهم وعهودهم، وكان لديهم ألفا سجين مدني قتلوهم بلا محاكمات ولا توجيه تهم إليهم.

وكان سلوكهم في الحرب سلوك قتلة وقطاع طرق لا سلوك محاربين وفيما يلي نموذج واحد من مئات الجرائم التي ارتكبوها أثناء الحرب في حق المدنيين: فقد قامت القوات الروسية في ٥ إبريل ١٩٩٥م باقتحام قرية "سامشكي" الشيشانية وأوقعوا بالأهالي المسلمين مجزرة وحشية. يقول شهود العيان: "توجهنا إلى القرية بعد خروج الروس منها لنتحقق من خبر شاع في المنطقة بأن مجزرة ما حدثت في مدرسة أطفال القرية، فلما وصلنا إلى المدرسة هالنا منظر عشرات من جثث الأطفال ممزقة بالرصاص في أرجاء المدرسة، وكان هناك نساء من أمهات الأطفال وأقاربهم يحاولن جمع الأشلاء المبعثرة لدفنها، ثم انتقلنا بعد ذلك إلى منزل أشار إليه الأهالي فدخلناه لنفاجأ بمشهد مروّع لجثث أطفال مشنوقين بأسلاك كهرباء، معلقين في سقف المنزل، كانت عيونهم جاحظة ووجوهم متوّرمة. لقد هرب هؤلاء الأطفال من مجزرة المدرسة ولكن تتبعهم الجنود الروس إلى حيث عثروا عليهم مختبئين في ذلك المنزل فأمسكوا بهم وشنقوهم هناك، ولم يكتف الروس بقتل الأطفال فقط وإنما قاموا بإحراق ثلاثين جثة رأيناها مبعثرة حول المنزل المنحوس".

فماذا فعل الروس بعد المجزرة؟ لقد أحاطوا القرية بسياج ومنعوا الدخول إليها لمدة ثلاثة أيام في محاولة لإخفاء معالم جريمتهم، ولكن يبدو أنه لم يكن لديهم الوقت الكافي لطمس كل آثار المجزرة فأشعلوا النار في جثث الأطفال قبل أن يرحلوا (انظر في هذه الواقعة تقارير منظمة العفو الدولية في نوفمبر ١٩٩٥م).

وفي الجولة الثانية من الحرب التي بدأت في سبتمبر ١٩٩٩م ولا تزال تطوراتها المأساوية تطالعنا حتى اليوم، ارتكبت القوات المسلحة الروسية جرائم وحشية ضد المدنيين،عرفنا أطرافاً منها وخفي عنا الكثير من حقائقها وتفاصيلها؛ وذلك بسبب التعتيم الإعلامي الذي تفرضه السلطات الروسية بالقوة والتهديد بالقتل، فالصحفيون الروس ممنوعون من دخول أراضي الشيشان أو التحدث مع الشيشانيين، وقد صرح بعضهم أن تهديدات بالقتل وُجّهت إليهم من مصادر أمنية إذا تحايلوا على الدخول إلى الشيشان أو نشروا أخباراً أو صوراً عن الحرب غير تلك التي تنشرها السلطات الرسمية في أجهزة إعلامها. وفي ٣٠ ديسمبر ١٩٩٩م أفرجت السلطات الروسية عن سبعة من الصحفيين الأجانب تمكنوا من دخول الشيشان وأذاعوا أخباراً عن وجود مقابر جماعية ومجازر وقعت في بلدة خان- يورت، فقبضت عليهم السلطات الروسية وحجزتهم عدة أيام بحجة التحقيق معهم، لدخولهم إلى الشيشان بدون

تصريح رسمي، وصادرت الأفلام التي كانت معهم ولكن تمكن بعضهم من تهريب بعض صور للقتلى وللمقابر الجماعية.

في الأوبزرفر البريطانية قصة المأساة التي تعيشها قرية سامشكي مرة ثانية في الحرب الحالية بعد مرور أربعة أعوام على مجزرتها السابقة، فقد قامت الصحفية "إميلدا جنتلمان" بتحقيق تحت عنوان "أسرار الحرب الانتقامية: الرعب في الشيشان محجوب عن العالم" تحكي فيه قصة القرية من خلال مأساة حلت بأسرة فيها تقول: "مدينا عبد الرحمانوف" فتاة شيشانية كسر الروس ساقها في الحرب السابقة وفي هذه الحرب قطعوا ساقها وذراعيها جميعاً، إنها فتاة في الثانية والعشرين من عمرها مكثت المرة الأولى خمسة أشهر في المستشفى بعد هجوم إبريل ١٩٩٥م، وهي ترقد الآن في المستشفى للمرة الثانية غارقة في أوجاع لا تحتمل، أجريت لها عدة عمليات جراحية ولكنها لم تنجح، وهي لا تدري كم من الوقت ستبقي في المستشفى.

والدة "مدينا" عمرها ٤٢ سنة واسمها "خافا" كانت تعمل محاسبة في مصنع تعليب أغذية، تقول: كنت أجهز طعام العشاء في مطبخ مظلم بدون كهرباء ولا غاز عندما رأيت الطائرات الروسية تحلق فوق القرية الشهر الماضي، فأسرعت أنا وابنتي إلى مخبأ بأسفل البيت، هو غرفة صغيرة كنا نحفظ فيها محصول البطاطس، وكنا قد أعددناه لنأوى إليه

أثناء الغارات في الحرب السابقة، ولم تزل الشموع موجودة به، كانت أصوات الانفجارات تصم الآذان فكنا لذلك صامتين أثناء القصف، وبين الغارة والأخرى كنا نتحدث أحياناً ماذا سنفعل إذ نجونا من هذه الحرب وكيف سيكون الحال إذا قتلنا".

سامشكي التي كانت رمزاً للدمار التي أحدثته القوات الروسية في الحرب الشيشانية الأولى، أصبح سكانها أشد رعباً من القصف هذه المرة، ولذلك اتفقت إدارة القرية مع القوات الروسية أن تخلي القرية من المتمردين في مقابل ضمان من القوات الروسية ألا تهاجم القرية، تقول "خافا" كنا نعرف أنه ليس عندنا متمردون ولا مسلحون فيما عدا بعض صبيان كانوا يلبسون زي المقاتلين ويمشون مزهوين في القرية، وقد اقتنعوا بالرحيل عن القرية والالتحاق بالمقاتلين في جروزني، وعلم الروس بالأمر، ومع ذلك قذفوا القرية بوابل من القنابل، هكذا قالت "إيمان أفديفيا" عندما تحدثنا إليها في عربة قطار قديمة هي ملجأها في إنجوشيا بعد خروجها من القرية لتعيش فيها مع أطفالها الأربعة. وتمضي "إميلدا جنتلمان" في استكمال قصة سامشكي المنكوبة، فتكتب على لسان لاجئ آخر كان يعمل بالشرطة الشيشانية هو "وحيد دربيشيف": "حدث أعنف هجوم روسي علينا يوم ٢٣ أكتوبر استمر لمدة ساعة ونصف متواصلة، كانت الصواريخ تمزق سكون الليل في القرية وتتساقط علينا من

كل ناحية، وفي الصباح خرجنا إلى قائد القوة الروسية المرابط خارج القرية فقال لنا: "لقد كان خطأً ووعد ألا يتكرر هذا الخطأ، وكان علينا أن نقبل الوعد، فلم يكن في مقدورنا الخروج من القرية والرحيل إلى إنجوشيا، لأن الطريق الذي كان مفتوحاً لسفر اللاجئين أغلقه الروس بحجة أنهم لا يستطيعون التمييز بين الأهالي وبين الإرهابيين، وفي ٢٥ أكتوبر عاد الروس لقصف القرية مرة أخرى. في هذا الهجوم ارتفع عدد الضحايا كثيراً وغضب الأهالي فذهبوا يشكون إلى إدارة القرية، فقيل لهم لا حيلة لنا مع الروس إنهم يعدون ويخلفون"، استمر القصف بعد ذلك لعدة أيام دون انقطاع والأهالي قابعون في المخابئ لم يجرؤ أحد على الخروج أثناء النهار، كانت المحلات التجارية مغلقة، ولم يذهب أحد إلى العمل فالمصانع أيضاً كانت مغلقة. وتمضي إميليا جنتلمان تستكمل قصة قرية سامشكي على ألسنة أهلها في المهجر: "بعيداً في إنجوشيا التقيت بالطفل رستم دربيشيف ١٢ سنة كانت أسرته قد أرسلته إلى إنجوشيا ليعيش في خيمة مع إخوته الثلاثة.. يقول: بدأ الروس يقصفون القرية ثم دخلوها وقتلوا ابنة عمتي وقتلوا جدي برصاصة في ظهره وكذبوا علينا عندما قالوا إنها كانت حادثة، لقد بدأت أكره الروس من قلبي. ويعقب وحيد أبو رستم يصف الهجوم الذي قتلت فيه ابنة أخته: بدأ الهجوم الساعة ٨,١٥ مساء يوم ٢٦ أكتوبر واستمر طول الليل.. كل شيء

في القرية كان يحترق.. لم نكن قد تمكّنا من إعادة قطيع الماشية من الحقول.. وكان الروس يقتلون كل شيء حي يتحرك على الأرض.. قتلوا البقر والكلاب والقطط لم يتركوا شيئاً.. في تلك الليلة قُصف منزل أختي فأصيبت في رأسها وعمودها الفقري وقتلت ابنتها على الفور.. في الصباح أسرعت إلى منزل أختي فحملتها إلى المستشفى.. ولكني وجدت المستشفى مليئة بالجرحى.. رأيت الجحيم في المستشفى: أكوام من البشر بدون أذرع وبدون أرجل وأنين يفوق الاحتمال.. نصحني الطبيب أن نذهب إلى مستشفى أخرى، فأخذتها وذهبت وكانت الطائرات الروسية تحوم فوق رءوسنا،.. كانت أختي تهلوس ودرجة حرارتها مرتفعة وتقول في أنين: كانت ابنتي بجانبي طوال الوقت فأين ذهبت.. أين ذهبت؟".

في ذلك الصباح أصيبت "مدينا" عندما خرجت من مخبئها تحضر بعض مياه للشرب، تقول أمها: "توقفت الغارة ذلك الصباح وظننا أن هذا كان نهاية الهجوم فخرجنا وعندئذ استأنف الروس غاراتهم من جديد وكان منزلنا أول منزل تصيبه القذائف.. استعنت بجار لنا حملناها في سيارته، وذهبنا نبحث عن مستشفى ولكن الطائرات كانت تقصف طريقنا والسيارة تسير بسرعة كبيرة وظننا أن نهايتنا قد اقتربت".

يتذكر أهالي قرية سامشكي المتقدمون في العمر أنها كانت قرية جميلة آمنة ترقد في أحضان النهر وتمتلئ حقولها بأشجار التفاح، أما اللاجئون

العائدون منها حديثاً فإنهم يقولون إنها أبشع الأماكن وأكثرها خراباً، يقول أحدهم واسمه "حسبوا اللاطوف"، عمره ٦٣ سنة، رحل منها الأسبوع الماضي: "الذين قرروا البقاء في القرية يلاقون أسوأ معاملة وأقسى اضطهاد من الجنود الروس، فهؤلاء الجنود لديهم تعليمات لتطهير القرية من سكانها.. إنهم يفتشون البيوت كل يوم ويقرأون كل ورقة فيها بحجة البحث عن أسلحة، ويقتحمون البيوت المهجورة فيسرقون كل ما فيها لا يتركون شيئاً من الدقيق أو الأجهزة الكهربائية.. حتى لعب الأطفال".

سكان قرية سامشكي عشرة آلاف هرب نصفهم لاجئين، وأما الباقي فبعضهم من كبار السن أقعدهم العجز والآخرون فضلوا البقاء في وطنهم مع خطر الموت على عذاب اللجوء والتشرد.

جروزني.. مدينة الصمود والشهداء:

منذ أول أغسطس الماضي، وبوتين يردد في تصريحاته أن حملة موسكو في شمال القوقاز ستكون سريعة وحاسمة وستنتهي في غضون أسابيع، وقد مرت أربعة أشهر ولم تنته الحملة الشيشانية بعد. ويأتي الجنرال "أناتولي كفاشني" رئيس هيئة الأركان ليصرح في ٢٢ نوفمبر ١٩٩٩م بأن جروزني أصبحت محاصرة بنسبة ٨٠٪ وأنها ستسقط بدون

معركة كبيرة، كان الروس يقدّرون أن إحكام الحصار على المدينة لمدة ثلاثة أسابيع مع القصف المكثف سوف يؤدي إلى الاستسلام بدون قتال، ولكن مر الآن أكثر من أربعة أسابيع ولم تستسلم جروزني، وعندما اقتحمت القوات الروسية وسط المدينة أعلن الرئيس أصلان مسعدوف أن القتال الحقيقي قد بدأ الآن . وبدأنا بالفعل نسمع عن قتلى وأسرى روس، تختلف الأرقام المعلنة بين الروس والشيشانيين، ولا يوجد مراقبون من الصحفيين الأجانب ليؤكدوا لنا الحقيقة فقد أبعد الروس جميع الصحفيين عن الشيشان كلها، ولكن أعلن الشيشانيون يوم ٢ يناير ٢٠٠٠م أنهم استعادوا ثلاثة قرى في جنوب جروزني من القوات الروسية، واضطرت روسيا في اليوم التالي للاعتراف بهذه الواقعة كما اعترفت بأن القوات المسلحة تواجه مقاومة عنيفة من المقاتلين الشيشانيين.

في الجولة السابقة من الحرب (٩٤-١٩٩٦م) كان وزير الدفاع الروسي السابق "بافيل جراشيف" يتباهى بأن الشيشان يمكن أن تستسلم في ساعتين اثنتين من القصف الجوي المركز، ولكن الحرب استمرت عامين وانتهت بكارثة عسكرية وهزيمة مهينة لروسيا، وسقط الثلاثة الكبار الذين خططوا لهذه الحملة وأداروها، سقط وزير الدفاع، وسقط وزير القوميات "نيقولاي إيجوروف" ومدير المخابرات الفدرالية "سيرجي

ستيباشين" فهل يتكرر نفس السناريو في الحملة الجارية الآن على الشيشان؟ الإجابة على هذا السؤال سابقة لأوانها، فإن هناك متغيرات كثيرة جدّت على الساحة خلال الأعوام الثلاثة الماضية لعل من أهمها أن الشيشان يُفرض عليها الحرب الآن وهي في أضعف أحوالها: آثار التدمير المروع متفاقمة، ومجتمع يعاني من الفوضى الإدارية والأمنية التي زرعتها المخابرات الروسية في أرض الشيشان، وعزلة سياسية وإعلامية طوقت بها روسيا الحكومة الشيشانية والشعب الشيشاني.

ومن ناحية أخرى تبدو القوات المسلحة الروسية في أفضل أحوالها من حيث التخطيط والتدريب والاستعداد لحرب طويلة المدى.

والجنرالات الذين عادوا إلى الحرب الشيشانية تعلموا دروساً كثيرة من أخطائهم في الحملة السابقة، يعودون للانتقام والثأر والرغبة العارمة في تحقيق نصر كاسح على الشعب الشيشاني المتمرد.

على رأس هؤلاء "اناتولي كفاشنين" رئيس هيئة الأركان (٥٣ سنة، جنرال ٤ نجوم)، تحمّل النقد العنيف بسبب فشله في الحملة الأولى، وهو الآن متعطش للثأر، إنه مسئول عن تنسيق الإستراتيجية في موسكو ويطمع في منصب وزير الدفاع، أكد ليلتسن أنه سيستقيل إذا أوقف الحرب لصالح الحل الدبلوماسي، وحذره بأنه "لابد في هذه المرة من استئصال الداء من جذوره قبل أن تستشري العدوى في كل مكان".

و"فيكتور كازانتسيف" قائد قوات منطقة شمال القوقاز (٥٤سنة، كولونيل جنرال)، رغم أنه لم يشترك في الحرب السابقة، ولكن أصيب فيها ابنه بجرح بليغ، ربما يفسر عنفه وحدته، إنه يجيد الوقوف أمام الكاميرات والحديث إلى التلفاز، وكثيراً ما صرح قائلاً: لقد تعلمنا من الشيشانيين أشياء وجاء دورنا لنعلمهم الكثير.

و"فلاديمير شمانوف" قائد الجبهة الغربية (٤٢ سنة، جنرال بنجمة واحدة)، كان من قادة الحرب السابقة، وعندما قيل له كن رحيماً بالنساء البريئات، قال ساخراً: عن أي نساء بريئات تتحدثون.. ليس في الشيشان إلا مجرمون، إنه من أشرس الشخصيات في الجيش الروسي، ويكره الشيشانيين كراهية عمياء.

و"جينادي تروشيف"قائد الجبهة الشرقية (٥٢ سنة، جنرال بنجمتين)، من قادة الحرب السابقة، كان معتاداً على التفاوض مع الأهالي لإقناع المتمردين بالخروج من بلدة ما فإذا خرجوا دكها بالمدافع كنوع من العقوبات الجماعية، فهو رجل لا يرحم ولا يرعى شرف الكلمة.

هذه هي نوعية القيادات العسكرية التي تشن الحرب حالياً على الشيشان، تتملكهم رغبة عارمة في الانتقام، ولديهم صلاحيات بلا حدود، وإمكانات عسكرية هائلة موروثة من الاتحاد السوفيتي، وذخيرة

لا ينضب معينـها، يتباهون بسيطرتهم على الإعلام وعلى الكريملين نفسه، وهم- لذلك- مستعدون لأن يذهبوا في جرائمهم ضد الشعب الشيشاني إلى أبعد مدى يمكن أن يصل إليه الخيال، حتى لا تقوم لهذا الشعب قائمة بعد اليوم.

فلاديمير بوتين والسفينة الغارقة:

مهندس هذه الحرب هو "فلاديمير بوتين": هو الذي أقنع يلتسن بجدوى تدعيم القوات المسلحة بالإنفاق السخي لشن حملة جديدة على الشيشان تتآزر فيها عمليات التخطيط المحكم بجوانبها العسكرية والسياسية والإعلامية، بذلك يكون نجاحها مضمونا، وتخرج روسيا منها دولة قوية منتصرة، قادرة على قمع التمرد في أي مكان، ويستعيد يلتسن وأنصاره المصداقية في نظر الشعب الروسي، وتكسب روسيا المهابة في الخارج.

وقد نجح بوتين أيضاً في تسويق فكرته الجهنمية لدى جنرالات الجيش الروسي الذين يتعطشون للثأر وإنقاذ سمعتهم المتردية، ومن ثم استطاع بوتين أن يقدم نفسه للجميع باعتباره رجل الإنقاذ الذي وصل في موعده المناسب لانتشال سفينة أوشكت على الغرق.

ليس مستغرباً- بعد ذلك- أن تتعلق أحلام بوتين بجائزته الخاصة، أن يرتقي مقعد الرئاسة في الكريملين بعد انتهاء مدة يلتسن، فنجاح الحملة الشيشانية سيجعل منه المرشح الأقوى الذي يحجب الآخرين عن

هذا المنصب في الانتخابات القادمة، وهي مخاطرة جديرة بالمحاولة، فبوتين- حتى لو فشلت الحملة الشيشانية- لن يخسر شيئاً، لأنه جاء إلى الكريملين بدون تاريخ سياسي يخشى على ضياعه، فقد كان رجل مخابرات مغمور ثم قفز فجأة من الكواليس إلى خشبة المسرح السياسي ليلعب دور البطولة، أولاً كرئيس لوزراء روسيا، ثم تلى ذلك الخطوة الثانية: فعلى مدى الثلاثة أشهر السابقة على انتخابات مجلس الدوما كانت أجهزة الإعلام الروسية تضخّ في عقول الجماهير صباح مساء أخبار وصور انتصارات متوالية في الشيشان على الإرهاب الإسلامي وقُطاع الطرق أعداء القومية الروسية، بينما يرتفع نجم بوتين القوي، مما انعكس في نتائج الانتخابات التي جاءت بمزيد من الأنصار في الدوما.

ثم جاءت الخطوة الثالثة في نفس الاتجاه (أعني تعزيز مركز بوتين) فقد فاجأ يلتسن العالم في آخر يوم بالألفية الثانية باستقالته وتنصيب خليفته بوتين قائماً بعمل رئيس الدولة. وجاءت استقالة يلتسن في أفضل وقت بالنسبة لنفسه وبالنسبة لخليفته بوتين.

بالنسبة ليلتسن: تخلى عن السلطة وجيشه في أوج انتصاراته، بينما لا يزال هو يردد تحذيراته للغرب بعدم التدخل في الحرب الشيشانية، كما يردد تهديده للرئيس كلينتون بألا يستهين بروسيا فهي دولة عظمى ولا تزال تملك ترسانتها النووية، ونسي الناس فضائح الفساد وسرقة الأموال ونسوا صورة الرئيس المعتل الصحة المدمن على الشراب،

الذي يفقد توازنه وهو أمام عدسات التلفاز، أما هو فلم ينس- قبل أن يرحل عن الكريملين- أن يستصدر قراراً رئاسياً من خليفته بمنحه هو وأسرته الحصانة اللازمة لمنع ملاحقتهم أو تقديمهم للمحاكمة بتهمة الفساد، ويشمل أيضاً كل أفراد يلتسن ويضمن عدم تفتيش منازلهم وسياراتهم ومكاتبهم وعدم التجسس على هواتفهم.

أما بالنسبة لبوتين: فقد قصّرت استقالة يلتسن عليه المدة التي كان عليه أن ينتظرها من ستة أشهر إلى ثلاثة أشهر فقط، حسب ما يقضي به الدستور في حالة استقالة رئيس الدولة، ووفّرت عليه الجهد والمخاطر المتعلقة بالحرب الشيشانية إلى النصف. ذلك لأنه كان على بوتين- لكي يضمن نجاحاً مؤكداً في انتخابات الرئاسة- أن يمطّ في أمد الحرب الشيشانية، وفي نفس الوقت يحافظ على مستوى إنجازاته العسكرية فيها لمدة ستة أشهر كاملة، قد لا تخلو من مفاجآت غير سارة ربما تقلب حساب التوقعات رأساً على عقب، ولكن باستقالة يلتسن تخفف بوتين من نصف الجهد ونصف المخاطر، فإذا نجح واستقر في مقعد الرئاسة بالكريملين فلا بأس عليه أن يوقف الحرب ويبحث عن حلول دبلوماسية وهو ما يزال في موقع القوة، وبذلك تكون الحرب الشيشانية قد استهلكت أغراضها ووصلت إلى غايتها.

والخلاصة أنه حتى يحين موعد انتخابات الرئاسة في ٢٦ مارس سنة ٢٠٠٠ توجد أمام بوتين ثلاثة أشهر حرجة، أما بالنسبة للشيشان

وشعبها فهي ثلاثة أشهر من الجحيم المستمر والدمار الشامل الذي لا يعلم مداه إلا الله.

سكان جروزني وحرب الإبادة:

لقد انطلقت الآلة العسكرية الروسية بدون رادع ولا قيد ولا حدود لما يمكن أن ترتكبه في الشيشان من جرائم وحماقات، بدأت تتكشف بعض ملامحها في تطورات بعينها وفي تصريحات القادة العسكريين، فعندما سئل الجنرال "فيكتور كوزانتسيف" قائد القوات الروسية في الشيشان عما إذا كانت قواته ستقتحم العاصمة لتستولى عليها فقال بالحرف الواحد: "سيتم الاستيلاء على جروزني بعملية خاصة انتهت القيادة العسكرية من وضع خطتها". ولم يشأ الجنرال كوزانتسيف أن يفصح عن حقيقة هذه الخطة أو يعلق بشيء من التفاصيل.

فإذا أخذنا هذا التصريح مأخذ الجد ولم نعتبره مجرد تهرب من السؤال الأصلي علينا أن نحاول فحص بعض الحقائق والمؤشرات ذات الدلالة.

أولاً: اعتمدت القوات الروسية في حملتها الشيشانية الحالية منذ البداية على القصف الجوي والمدفعي المركز والعشوائي الذي تعلمته موسكو من الولايات المتحدة والناتو في كوسوفا وفي حرب الخليج الثانية، كذلك استفادت القوات الروسية بالتكتيك العسكري لسلوبودان ميلوسفيتش الذي دمر به يوغسلافيا والبوسنة على وجه الخصوص.

يعلق على ذلك الجنرال أندريا نيقولاييف رداً على سؤال إيان تراينر (الجارديان ٢٣ نوفمبر ١٩٩٩م) فيقول: "إن هذا ليس جُبناً، إنما هو نوع جديد من الحرب.. حرب المستقبل.. حرب بدون خسائر.."

تقوم روسيا بقصف القرى والمدن الشيشانية قصفاً عشوائياً بلا حساب، كل ضحاياه من المدنيين، بحجة إيوائهم لحفنة من المجاهدين (أو الإرهابيين)، كنوع من العقاب الجماعي الذي أتقنه ميلوسفيتش وسبقته به إسرائيل.

هكذا يفعل الروس في الشيشان قصف جوي ومدفعي من بعيد مع تكتيك الحصار والتجويع والتهجير القسري، وإطلاق النار على قوافل المهجّرين من وقت لآخر لإشاعة جو من الرعب ليلوذ الجميع بالفرار، بعد ذلك تتقدم القوات ميلاً بميل نحو جروزني، فلا يتدخل المشاة إلا للكنس خلف الآلة الحربية. وهذه أول مرة يحارب فيها الروس بهذا التكتيك، ففي الحملة السابقة هاجموا جروزني بقوات كبيرة اقتحمت المدينة فأصيبت بخسائر فادحة في الأرواح ومنيت بالهزيمة، لذلك فهم لا يكررون نفس الخطأ في هذه الحملة.

ثانياً: لا يزال في جروزني أربعون ألفاً من السكان المدنيين تعتبرهم القوات الروسية رهائن تحت التهديد المستمر لكسر إرادة المقاتلين الشيشانيين، تركوا منازلهم المهدمة ليعيشوا في أقبية تحت الأرض بدون مياه ولا كهرباء ولا غاز، والطعام لديهم شحيح.

وعندما بدأت القوات الروسية تحكم حصارها على جروزني في ١٤ ديسمبر ١٩٩٩م ثار الرأي العام الغربي مطالبا بفتح طريق آمن لخروج المدنيين، فتظاهرت موسكو بالاستجابة ومنحت سكان جروزني مهلة ٤٨ ساعة لإخلاء المدينة، فلما شرع السكان في الهجرة أمطرهم الجنود الروس بطلقات نارية فعادوا من حيث أتوا. الممر الآمن كان إيهاماً وخدعة فحسب، وكفى موسكو أنها أعلنت وحذّرت في وسائل إعلامها لكي يكف الآخرون عن النقد والصراخ، لقد أدت واجبها واحتفظت برهائنها وفقاً لخطتها الأصلية، هؤلاء هم ضحايا القصف العشوائي اليومي على جروزني.

ثالثاً: مع مواصلة القصف العشوائي للمدينة وتكثيفه، ومع تطويق المدينة من جميع جهاتها وإغلاق كل الطرق التي تربطها بالعالم الخارجي، بدأت القوات الروسية تطلق عليها قذائف غير تقليدية كعينات اختبار للرأي العام العالمي، ومراقبة تأثير هذه القذائف على المقاتلين الشيشانيين: ففي ٣٠ ديسمبر الماضي أسقطت الطائرات على جروزني قنبلة إنشطارية ضخمة زنة خمسمائة كيلو جرام من المتفجرات، ورأينا في اليوم التالي صوراً للضحايا من الأطفال المصابين تسربت إلى وسائل الإعلام الخارجي، وفي ذلك اليوم ٣١ ديسمبر أسقطت الطائرات الروسية قنابل النابالم المحرمة دولياً، وقبل ذلك بأسبوعين أسقطت قنبلة غاز سام صغيرة قتلت على الفور ستة وعشرين شخصاً، شاهدها

الناس تسقط من طائرة روسية، ولكن القوات الروسية أنكرت ذلك وزعمت أنها من عمل المقاتلين الشيشانيين بشعبهم لكسب تعاطف العالم الخارجي، وعندما احتدم القتال حول جروزني وتكبدت القوات الروسية خسائر كبيرة واستطاع الفدائيون المسلمون أسر عدد من الجنود الروس، وصف الجنرال شبانوف المقاومة بأنها "مقاومة ضارية"، وصعّدت القوات الروسية قصفها باستخدام الأسلحة ذات الدمار الشامل، في هذه المرة قنابل كيماوية، هنالك طالب الرئيس الشيشاني أصلان مشهدوف بوقف القتال لمدة ثلاثة أيام بمناسبة عيد الفطر المبارك وحضور لجنة دولية محايدة للتحقيق في أمر القنابل الكيماوية التي تنكر موسكو استخدامها، ولكن موسكو لم تعن حتى بالرد عليه.

الترسانة العسكرية الروسية بها أنواع لا حصر لها من هذه الأسلحة غير التقليدية ذات الدمار الشامل، لديها مخزون هائل ورثته من الاتحاد السوفيتي، وروسيا الآن تجرّبه على الشعب الشيشاني المسلم بحجة القضاء على الإرهابيين المتمردين.

واستخدام هذه الأسلحة على نطاق محدود- حتى الآن- ليس إلا مؤشراً على المدى الذي يمكن أن تذهب إليه روسيا في حربها ضد الشيشان، ومؤشراً على الأبعاد الكارثية التي يمكن أن تلحق بالشعب الشيشاني إذا أصر مقاتلوه على مواصلة المقاومة ولم يستسلموا.

ولأن العالم الغربي غير معني بهذه القضية، وإنما يعنيه فقط أن يرى خليفة صديقهم بوتين مستمراً في الكريملين، وأن يرى الشيوعيين في روسيا لا يتحكمون في الدوما، ولأن العالم المسلم في حالة غياب عن الوعي (إن لم يكن في حالة احتضار)، فإن التصعيد العسكري الروسي في مجال الأسلحة ذات الدمار الشامل سيكون له أخطر الآثار في الحرب الشيشانية.

يجب ألا ننسى أن القصف العشوائي بالقذائف التقليدية في حد ذاته كان له نتائج مروعة على المدنيين في جروزني، فغارات يوم واحد (هو يوم ٢٧ نوفمبر الماضي) تسببت في مقتل خمسمائة إنسان، ومسلسل القصف الجوي والمدفعي مستمر على مدار ساعات الليل والنهار.

رابعاً: كلما اشتدت المقاومة الشيشانية كلما صعدت الآلة الروسية الإعلامية حربها النفسية ضد المقاتلين، في محاولة لتمزيق صفوفهم بزرع الشكوك فيما بينهم، من نماذج هذه الحرب النفسية: جاءت السلطات الروسية بعميل شيشاني هو "مالك سيد اللاييف"، رجل أعمال ورئيس ما يسمى بـ "مجلس دولة الشيشان"، وموعود بأن يكون الرئيس الحالي المنتخب، جئ بالرجل في ٤ يناير سنة ٢٠٠٠ ليعلن في موسكو أن هناك أربعة آلاف مقاتل من المتمردين يقودهم سبعة وعشرون ضابطاً يرغبون في تسليم أنفسهم وأسلحتهم إلى السلطات الروسية إذا ضمنت سلامتهم الشخصية.

لو كان هذا الخبر صحيحاً لانتهت المقاومة الشيشانية، فالرقم التقديري للجيش الروسي حصر المقاومة في ثلاثة إلى أربعة آلاف متمرد فقط، وأصر على إشاعة هذا الرقم في كل تصريحاته الرسمية، والمحللون السياسيون مدركون أن الجيش كان يكذب من البداية ولابد أن يستمر هو وعملاؤه في الكذب، لذلك عندما اصطدم بمقاومة عنيدة في الأسبوع الأول من يناير هذا العام وكثر عدد القتلى والأسرى الروس زعم المتحدث الرسمي في موسكو بأن أعداداً كبيرة من المقاتلين الشيشانيين يخترقون الحصار الروسي في المنطقة الجنوبية ليلحقوا بالمقاومة في جروزني، ونسى أنه أعلن منذ أسبوع واحد أن جروزني مطوقة من كل ناحية وأنه حصار محكم لا يمكن اختراقه.

نموذج آخر من هذه الحرب النفسية: إعلان موسكو قبل اقتحام جروزني مباشرة عن تأليف قوة من الشيشانيين، قالت إن عددهم ألف وخمسمائة شخص، دربتهم القوات المسلحة الفدرالية لكي يتقدموها في عملية الاقتحام، أما قائد هذه الوحدة فهو شيشاني أخرجه بوتين من السجن اسمه "بيسلان جنتنا ميروف"، وقيل إنه كان عمدة لجروزني في وقت من الأوقات، وأنه كان يقضي مدة عقوبة على جريمة نصب واحتيال ولكن بوتين أصدر أمراً بالعفو عنه.

في نظر المواطن الروسي لا يهم أن يستعين جيشه بمجرمين لأنهم سيقاتلون مجرمين مثلهم، فهذه صورة الشيشاني المقولبة في الإعلام

الروسي، المهم أن هناك شيشانيين يحاربون في صفوف القوات الروسية ضد الإرهاب الإسلامي. لكن بعد أن احتدم القتال ذابت عصابة "جنتا ميروف" في جروزني فلم يعد أحد يسمع أخبارهم.

وأهم من ذلك أن فرية موسكو لم تعد تقنع أحداً بأن روسيا تحارب في الشيشان فئة متمردة محدودة العدد من الإرهابيين وأن الشعب الشيشاني يؤيدها ويقف إلى جانبها في حملتها التحريرية ضد الإرهابيين.

في نهاية الأسبوع الأول من شهر يناير ٢٠٠٠ سمعنا عن قتال عنيف ومقاومة ضارية تأخذ مجراها في المنطقة الجنوبية خارج جروزني، وهي منطقة كانت القوات الروسية قد أعلنت قبل أعياد الميلاد أنها استولت عليها وأحكمت حصارها لجروزني. في هذه المنطقة الجبلية تقع أربع قرى هي: خان يورت و خراشوي وفيدينو وتشيشكي، وهي مواقع بالغة الأهمية لضمان اتصال المجاهدين بمصادر الإمدادات خارج جروزني.

عرفنا خبر استعادتها بواسطة القوات الشيشانية حسب تصريح للرئيس أصلان مسعدوف ثم اضطرت القوات الروسية للاعتراف بذلك، كما اعترفت بخسائر من القتلى والجرحى الروس، ولكنها كالعادة قلّلت من هذه الخسائر، وصرح المتحدث الرسمي باسم القوات المسلحة أن المقاتلين الشيشانيين قد تمكنوا من اختراق الطوق الجنوبي لحصار جروزني وأن المقاومة الشيشانية– حسب وصفه هو– ضارية، ولكنه لابد

أن يضيف إلى ذلك فرية، فقد زعم أن المقاتلين يستخدمون دروعاً بشرية من المدنيين الشيشانيين، وهو كلام إعلامي لازم لتشويه صورة المقاومة الشيشانية، داء قديم مازال يكشف عن نفسه في قلب السلطة الروسية، ولا يخجل بوتين من ترديده.

لقد بدأت أكتب هذه الدراسة في آخر شهر بالألفية الثانية، وها نحن في الألفية الثالثة: شهر جديد وعام جديد وقرن جديد وألفية جديدة وأشياء كثيرة تغيّرت في هذا العالم إلا العقلية الإمبريالية الروسية لم تتغير منذ القيصر إيفان الرهيب إلى القيصر بوتين.. على الأقل في مسألتين: قهر القوقاز وقمع الإسلام فيه، ولكن لم ينجح القياصرة، ولا ديناصورات الاتحاد السوفيتي فهل ينجح قزم من أل "كي. جي. بي"!؟ سأدع الإجابة على هذا السؤال لتفصح عنه تطورات الحرب الشيشانية في الأسابيع القادمة، فالشيشانيون يقومون بهجمات خاطفة مباغته ويقاتلون بروح المجاهدين المهرة الطامعين في النصر أو الشهادة وهي حرب يصعب التكهن بنتائجها.

أكتب هذه السطور وأنا أشاهد الآن على شاشة التلفاز البريطاني لقطتين من أرض المعركة تلخص كل شيء في لمحات خاطفة:

مجاهد شيشاني مع مجموعة صغيرة من زملائه في فترة راحتهم يجيب على سؤال لصحفي: هل تخاف وأنت تواجه الآلة العسكرية

الروسية؟ فأجاب ببساطة وهو يبتسم: هناك مثل شيشاني قديم يقول: "من يأت إلينا حاملاً سيفه نقتله به".

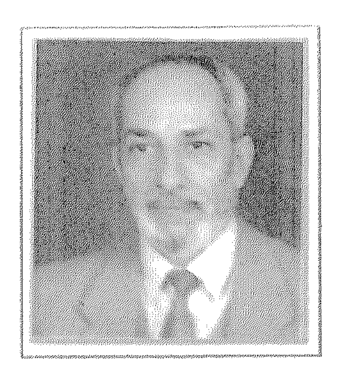
أما اللقطة الثانية فهي لجندي روسي يرقد جريحاً على فراشه في المستشفى، سأله الصحفي ماذا رأيت في المقاتلين الشيشانيين عندما اشتبكت معهم؟ فأجاب: إنهم يبدون مهارة فائقة في القتال، ولا يمكن لأحد إلا أن يغبطهم ويحترمهم" (مساء ٦ يناير ٢٠٠٠).

وفي اليوم التالي (٧ يناير ٢٠٠٠) أذيع هذا الخبر من نفس القناة: "إقالة اثنين من الجنرالات الروس المسئولين عن قيادة الحرب في الشيشان". فهل لهذا الخبر من دلالة معينة على تطورات هذه الحرب؟ سوف تكشف الأيام القادمة عن حقيقة ما يحدث الآن في الشيشان.

محمد يوسف عدس

لندن في ٨ يناير سنة ٢٠٠٠م





محمد يوسف عدس

خبير سابق بهيئة اليونسكو

في هذا الكتاب

- أسباب عميقة الجذور
- إدراك الذات والآخر
- الإمام شامل
- النبيل والهمجى الوضيع
- ستالين يبيد الشيشانيين
- آثار الحرب الروسية فى الشيشان
- خسائر فادحة فى الأنفس
- تدمير البنية الأساسية للنظام التعليمى
- كارثة بيئية وصحية
- عمليات إرهابية سرية وحملات تزييف إعلامى
- جروزنى .. مدي... والشهداء
- فلاديمير بوتين ... رق
- يلتسين
- بوتين
- سكان جروزنى ...